الفصل الخامس

نصُوص من كتب ناصر الدين دينيه

ناصر الدين والمستشرقون

حينما ألف السيد ناصر الدين كتابه عن حياة سيدنا محمد ﷺ ، ثارت ثورة النقاد متجهة ، على الخصوص ، إلى الشكل ، لا إلى الجوهر : لقد زعموا أن الأبحاث العلمية الحديثة قد وضحت جوانب من سيرة الرسول ، وأن المستشرقين فى مختلف الأقطار قد كتبوا عن سيرة سيدنا محمد كتابة تعتمد على الأبحاث العلمية الدقيقة ، ورأوا أن الأستاذ ناصر الدين لم يعبأ بشىء من ذلك ، وأخذوا عليه أنه لم يقم وزناً لإنتاج المستشرقين فى السيرة النبوية ، وأن اعتماده إنما كان على السيرة القديمة ، كسيرة ابن هشام وابن سعد .

المستشرقون لا يفهمون السيرة النبوية :

والواقع أنه فعل ذلك ، وفعله متعمداً ، فقد كتب السيرة معتمداً على المنقول من الأخبار الإسلامية الصحيحة ، ولكنه فعل ذلك بعد أن قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد أنه لا يساوى شروى نقير .

لقد رأى أنه من المتعذر ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ، ونزعاتهم المختلفة ، وأنه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبى والصحابة مبلغاً يغشى على صورتهم الحقيقية ، من شدة التحريف فيها ،

وبرغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة ولقوانين البحث العلمى الجاد يقول دينيه : «فإنا نلمس من خلال كتاباتهم :

محمداً يتحدث بلهجة ألمانية ، إذا كان الكاتب ألمانيًّا .

ومحمداً يتحدث بلهجة إيطالية ، إذا كان الكاتب إيطاليًّا .

وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، وإذا بحثنا فى هذه السيرة عن الصورة الصحيحة ، فإنا لا نكاد نجد لها من أثر !

إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية ، هى أبعد ما تكون عن الحقيقة !

إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التى يؤلفها أمثال « ولتر سكوت » و « إسكندر ديماس » . وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة .

أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة فصوروهم حسب منطقهم الغربى ، وخيالهم العصرى .

وإن الدكتور « سنوك هيرغرنجة » ليقول بحق ، فى نهاية نقده لكتاب المستشرق « جريم » :

« إننا نرى أن الأستاذ « جريم » لو اقتصر على درس السير النبوية القديمة وبحثها فى عمق لكان أفضل ، وإن الثمار التى كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لهى أجدر ببلوغ الغاية التى توخاها ، ولكنه ظن أن هذا عمل ليس له أهمية كبيرة ، وأراد أن يطرف الناس بنبأ جديد ، ففشل فى وضع السيرة النبوية التى حاول فيها أن يطبع محمداً بطابع الروح الاشتراكى ، وفى جعل محمد

اشتراكيًّا وأن تقود الاشتراكية نفسها محمداً لأن يضع الدين العربى الذى أتى به .

إن الاشتراكية الإسلامية – لا الاشتراكية الحديثة ، كما يتصورها « جريم » ثمرة من ثمار الرسالة الإسلامية ، وليست الرسالة الإسلامية ثمرة الاشتراكية .

تخبط المستشرقين

يقول دينيه :

ولنضرب الآن بعض الأمثلة . للنتائج التى توصل إليها المستشرقون فى أبحاثهم التى يزعمونها علمية صحيحة ، وسنضرب بعضها ببعض لتنهار ، ولو كانت علمية حقًا لما اختلفت ، ولما تعارضت ، ولما كان مصيرها التلاشى :

١ – كيف كان خلق محمد ؟ وما هو السر فى تأثيره العظيم على أبناء وطنه ؟

عن هذا السؤال يجيب « دوزى » : لعل رسول الله – كما كان يلقب نفسه – لم يكن أسمى من مواطنيه ، ولكنه من المؤكد أنه لم يكن يشبههم .

كان صاحب خيال فى حين أن العرب مجردون عن الخيال ، وكان ذا طبيعة دينية ، ولم يكن العرب كذلك »[1] .

ولا يرضى القسيس لامانس بهذا فيصرخ متأثراً بحقده الجارف ضد الإسلام ، ويقول :

« كان محمد – برغم معايبه – (معاذ الله) يفتن البدوى الذى كان يرى ذاته فى شخص النبى العربى ، كما يدعوه القرآن ، وفى هذا التفاعل ، أو فى هذه

---

(١) دوزى مسلمو الأندلس ، ج ١ ، ص ١٨ .

المطابقة العامة بين محمد وبيئته ، نجد أولا وقبل كل شيء السر فى هذا السلطان الضخم الذى كان لمحمد على مواطنيه[1] .

٢ – سؤال آخر : ماذا كانت ميول محمد قبل البعثة ؟

يرى « دوزى » أن محمداً كان سوداوى المزاج يلتزم الصمت ، ويميل إلى التنزهات الطويلة فريداً ، وإلى التأملات المستغرقة فى شعاب مكة المتوحشة .

ويرد القسيس لامانس – ضارباً بكل حقيقة عرض الحائط :

« كلا ، ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزلته ، فذلك لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة ، وكراهيته المشهورة للنسك »[2] .

٣ – وسؤال ثالث : ماهى العوامل فى بعثة محمد ورسالته ؟

إنها نوبات الصرع كما يفترى « نلدكه » .

وكيف تكون نوبات الصرع عاملا فى البعثة ؟

سلوا عن ذلك « نلدكه » .

ولكن المستشرق « دوغويه » يعتقد : أن هذا بعيد الاحتمال ويعلل ذلك بأن الحافظة فى المصروعين تكون معطلة ، على حين أن حافظة محمد كانت غاية فى الجودة كلما هبط عليه الوحى[3] .

---

(١) لامانس : مهد الإسلام ، ص ٤ ، ٥ .

(٢) لامانس : هل كان محمد صادقاً ص ١ .

(٣) « دوغوية » مباحث شرقية ص ١ . ويقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » ، ص ٤٠ : « ونعود إلى تفنيد النقطة الأخيرة من رسالة ذلك المصرى المسلم . فهو يذكر أن مباحث المستشرقين دلتهم على أن النبى كان يصاب بالصرع . وأن أعراضه كانت تبدو عليه ، إذ كان يغيب عن صوابه ، ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجات ، وتخرج من فمه الرغوة ، حتى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به مايقول : =

= إنه وحي الله إليه ، فى حين أنه لم يكن هذا الوحى إلا أثراً من نوبات الصرع .

وتصور ما كان يبدو على محمد فى ساعات الوحى على هذا النحو : خاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ . فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أى ذكر لما مر به فى أثنائها ، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها ، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل . هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم ، ولم يكن ذلك يصيب النبى العربى فى أثناء الوحى ، بل كانت تنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه . هذا ثم إن نزول الوحى لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الحسية مع تنبه الإدراك الروحى غاية التنبه ، بل كان كثيراً ما يحدث والنبى فى تمام يقظته العادية ، وحسبنا أن نشير إلى ما أوردنا فى هذا الكتاب من نزول سورة الفتح عند قفول المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد الحديبية .

« ينفى العلم إذن أن الصرع كان يعترى محمداً ، ولذلك لم يقل به إلا الأقلون من المستشرقين الذين افتروا على القرآن أنه حرف ، وهم لم يقولوا به حرصاً على حقيقة يتلمسونها ، وإنما قالوا به ظناً منهم أنهم يحطون من قدر النبى فى نظر طائفة من المسلمين ، أم حسبوا أنهم يلقون بأقوالهم هذه ظلاً من الريبة على الوحى الذى نزل عليه ، لأنه نزل عليه – فيما يزعمون – فى أثناء هذه النوبات ، إن يكن ذلك فهو الخطأ البين كما قدمنا وهو ما ينكره العلم عليهم أشد الإنكار .

ولو أن نزاهة القصد كانت رائدة هؤلاء المستشرقين لما حملوا العلم ما ينكره . وهم إنما فعلوا ذلك ليخدعوا به أولئك الذين لا يهديهم علمهم إلى معرفة أعراض الصرع ، والذين تمسكهم طمأنينتهم الساذجة إلى أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب ، وعن الرجوع إلى كتبه . ولو أنهم فعلوا لما تعذر عليهم أن يكشفوا عن خطأ هؤلاء المستشرقين خطأ مقصوداً أو غير مقصود ، ولتبينوا أن النشاط الروحى والعقلى للإنسان يحتى تمام الاختفاء فى أثناء نوبات الصرع ، ويذر صاحبه فى حالة آلية محضة . يتحرك مثل حركته قبل نوبته ، أو يثور إذا اشتدت به النوبة ، فيصيب غيره بالأذى ، وهو فى أثناء ذلك غائب عن صوابه ، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحل به ، شأنه شأن النائم الذى لا يشعر بحركاته فى أثناء نومه . فإذا انقضى ما به لم يذكر منه شيئاً وشتان ما بين هذا وبين نشاط روحى قوى قاهر ، يصل صاحبه بالملأ الأعلى عن شعور تام ، وإدراك يقينى ، ليبلغ من بعد ما أوحى إليه . =

ولا نكاد ننتهى من هدم « نوبات الصرع » حتى يؤكد « اسبرفر » أنها نوبات هيستريا اشتهرت باسم شوتلاين »[1] .

ولكن « سنوك هرغرنجه » يرى أن هذه الأسس التى يراد أن تقام عليها البعثة أسس واهية ، ويقول :

يجب أن نقر بأن قيمة محمد إنما هى ما يميزه عن سائر الهستيريين .

ويدلى المستشرق « جريم » بدلوه هو الآخر ، فيرى أن الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هى التى قادت محمداً إلى الرسالة .

أما مستنده فى ذلك : فهو تشديد محمد فى الزكاة التى يسميها « جريم » ضريبة ، ولما كان القول بذلك فى مكة أسهل من التنفيذ فقد حاول النبى – فيما يرى « جريم » – أن يؤثر على المكيين بتخويفهم من يوم الحساب متخذاً الإكراه الروحانى وسيلة للبذل والسخاء »[2] .

ولكن « سنوك هرغرنجه » يرد على « جريم » ، ويرى أن رأى « جريم » واستشهاده ، كل ذلك غريب ، سواء نظرنا إلى المنقول فى السيرة ، أو نظرنا إلى ظروف البيئة العربية إذ ذاك ، وينهار – تحت قلم « سنوك » – الرأى القائل بأن الإسلام ، فى الأصل ، أقرب إلى أن يكون اشتراكية نشأت عن بؤس ذلك الزمن وفقر بنيه من أن يكون ديناً .

= « فالصرع : يعطل الإدراك الإنسانى ويزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد فى أثنائها الشعور والحس . أما الوحى فسمو روحى اختص الله به أنبياءه ، ليلقى إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا ، كى ينقلوها للناس » .

(١) أسبرنغر : حياة محمد وعمله ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٢) جريم : محمد ، ص ١٥ .

بيد أن « سنوك » يزعم – ولابد له من الزعم ، لأنه لابد له من التعليل – أن الباعث على رسالة محمد إنما هو : فزعه العظيم من يوم القيامة والحساب ، وتفكيره المتواصل فى مصيره ، وفى الجنة وفى النار .

وإرادة الإغراب فى المستشرقين قوية جامحة ، وقد بلغ القمة فى الإغراب المستشرق « مرجليوث » . لقد خطأ كل الآراء التى ذكرناها ، وأراد أن يأتى ببدع من القول يتناسب مع القرن العشرين ، فرأى أن الباعث على بعثة الرسول إنما هى أعمال الشعوذة[1] .

لقد عرف محمد خدع الحواة ، وحيل الروحانيين ، ومارسها فى دقة ولباقة . وقد كان يعقد فى دار الأرقم جلسات روحانية ، وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية ، تشبه الماسونية ، ولهم شعارات تعارف مثل « السلام عليكم » ، وعلامات يتميزون بها كإرسال طرف العمامة بين الكتفين .

أرأيتم المدى الذى يصل إليه المستشرقون فى تخبطهم ، واضطرابهم ، وتعصبهم ، وإرادتهم الإغراب ؟

إن فيما مر ما يكفى لتصوير حالة المستشرقين ، ومع ذلك فسنتحدث عن آرائهم فى مسألة رابعة محددة أبعد ما تكون عن الفروض والتخمينات .

٤ – ما هى الأسباب فى مرض الرسول وموته ؟

---

(١) كتب المستشرق « مرجليوث » كتاباً عن سيدنا محمد أتى فيه بكل غريب وبكل باطل ، وظهرت كراهيته للإسلام من خلال هذا الكتاب ظهوراً بشعاً . ومن مزاعمه المضحكة مثلاً : أن محمداً ﷺ سافر إلى مصر لأن كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها . ويرد عليه المستشرق « نولدكه » فيقول : إن محمداً لم يكن يعلم أن المطر قليل فى مصر قلة مطلقة ، ولو كان سافر إليها لعلم تلك الحقيقة التى لا تخفى على أحد .

يعتصر القسيس « لامانس » خياله حتى يخرج برأى يشفى شيئاً من غليله ضد الإسلام ، ضارباً بالمعقول وبالتاريخ ، وبالحقيقة عرض الحائط ، فيقول :

كان لمحمد شهوة قوية جيدة ، وقد كثفت جسمه باللذات ، وخدرت أعضاءه فأصبح مهدداً بداء السكتة » .

وعلى الضد من تلك تماماً يرى المستشرق « بينيه سنغلة » : أن رؤى محمد كانت فى بعض الأحيان أثراً لضعفه الشديد من الجوع ، ولقد كان يسمع فى أثناء صومه ما يشبه مواء القطط ، أو أصوات الأرانب . ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين » .

ويعارض هذا وذاك المستشرق « كلمان هيار » فيرى أنه قد ظهرت على محمد أعراض التهاب رئوى فخارت قواه بسرعة عظيمة ، وتوفى فى الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجرية[1] .

أما القسيس « باردو » فإنه يرى أن محمداً مات مسموماً بيد امرأة يهودية »[2] .

هل نستطيع - بعد أن رأينا ما سبق - أن نعتمد على آراء المستشرقين مع أن ما ذكرناه من اختلافهم إنما هو قليل من كثير ، ويهدم بعضه بعضاً ، ومن اليسير أن نحقق فيه المثل العربى : « لا تكسر الجوزة إلا على جوزة » فنبطل تراث المستشرقين كله فى السيرة النبوية ، ضاربين بعضه ببعض فإذا هو زاهق .

---

(١) كلمان هيار ، تاريخ العرب ، جـ ١ ص ١٨١ .

(٢) باردو ، علامات محمد : ما هى وما قيمتها ؟ ص ١٧١ .

المنهج الذى يجب أن يتبع فى دراسة السيرة :

إن الصرح الذى شيده المستشرقون فى سيرة الرسول ، إنما هو صرح من الورق قد أقيم على شفا جرف هار ، والسبب فى ذلك واضح . ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثلى فيما ينبغى أن يعتمدوا عليه فى السيرة النبوية ، إن كاتب السيرة النبوية يجب عليه أولا : أن يتجرد عن الشهوة والهوى والعصبية ، ويبدأ فى دراسة الموضوعات نافضاً عن رأسه كل ما أوحته إليه من أباطيل عن الإسلام ، وكل ما غرسته فى نفسه من ترهات ، خاصة بمؤسس الدين الإسلامى . . وإذا لم يفعل ذلك فإن ما يكتبه سيكون لا محالة وهماً وباطلا .

ويجب عليه ثانياً : أن يعتمد على الأخبار الصحيحة التى رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين ، يجب عليه أن يعتمد على سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وعلى البخارى ومسلم ، وعلى تاريخ الطبرى ، وقبل ذلك وبعده على القرآن .

ويجب عليه ثالثاً : أن يدرُس البيئة العربية فى مهدها الأصلى ، مكة ، والمدينة ، والطائف ، وغيرها حتى يتجلى له الغامض ويتضح له المبهم وتستقيم له الفكرة .

إن البيئة العربية الحالية تكاد ترينا رأى العين أشخاص الأخبار التى رويت فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ، بل إننا نكاد نتعرف فيها على هذه الشخصيات فى أصغر إشاراتها وأبسط أفكارها .

أما إذا قرأنا عن هذه الشخصيات فى كتب المستشرقين ، فإننا لا نكاد

نعرفها لشدة التحريف فى تصويرها ، وكثيراً ما نلقى – لولا الأسماء العربية – صعوبة فى فهم أن هؤلاء المسلمين الذين يتحدث عنهم المستشرقون رجال من العرب ، وذلك لبعد العقلية التى نسبت إليهم عن العقلية التى كانوا عليها .

وبعد : فإن « رينان » فى كتابه « حياة المسيح » يقول :

« حقًّا أن لسير محمد العربية ، مثل سيرة ابن هشام ، ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل »[1] .

وهذا يكفينا ردًّا على المستشرقين الذين يبتعدون عن الصورة الواقعية التى رسمتها كتب السيرة القديمة .

(١) رينان : « حياة المسيح » ، ط ١٢ ، ص ٢٠٩ .

القسيس لامانس

والآن نريد أن نتخذ من أحد المستشرقين مثالاً واضحاً لموقفهم من الإسلام . وذلك هو القسيس « لامانس » ذلك أن تصنيفه من أضخم التصانيف ، وقد كتب عن بدء الإسلام أكثر من عشرة مؤلفات ، وتعمق فى دراسة صدر الإسلام ، لغرض فى نفسه لا يخفى على أحد مهما كان ساذجاً ، ذلك الغرض هو هدم الإسلام . ولكن الله غالب على أمره ، وهو يقول :

(إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) .

إن « لامانس » قسيس يقطن لبنان ، ومن هناك – وهو هادئ مطمئن ، غير عابئ بشعور المسلمين ، ولا بحقوق الجوار . ولا بالأخوة الوطنية – يرسل نقده ، ويقوم بهجومه فى غير هوادة ولا ترفق .

لقد ضاق ذرعاً برؤية الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً ، ويبسط ظله يوماً فيوماً ، على أفريقيا وآسيا ، ويضيق صدر القسيس « لامانس » ، فإذا به يسخط على القدر نفسه ، ويقول :

« لماذا جاء القرآن فجأة ، ليقضى على التأثير اللطيف ، الذى كان الإنجيل قد أخذ يحدثه فى ابن البادية ؟ » .

والحق أن مثل « لامانس » فى الاستشراق كمثل بطرس الناسك فى الحروب الصليبية ، وأنه ليقوم فى الناحية العلمية بما كان يقوم به الناسك فى ناحية

الدعاية الحربية ، وكالناسك يتخذ من الوسائل ما يؤديه إلى الهدف غير عابئ بعدالة الوسيلة ، وأن نزعة كهذه لا يمكن أن تؤدى بمؤرخ إلى الإنصاف العلمى .

والحق أننا قد اخترنا هذا المستشرق بالذات ، لأن شهرته العلمية قد خدعت الكثيرين ، فأحسنوا الثقة به ، مع أن إسناداته الكثيرة التى يثبتها فى آخر كل صحيفة إنما هى من قبيل التمويه على القارئ ، والحقيقة أنها لا قيمة لها .

واخترناه أيضاً لأن هواه المتحكم واضح كل الوضوح . بيد أن غيره من العلماء ممن كان هواهم إنما هو التدليل على أن محمداً إنما كان مصروعاً أو هستيريًّا ، أو اشتراكيًّا قادته الاشتراكية إلى الدين . . هؤلاء العلماء – هم أيضاً – لا تدع لهم أهواؤهم سبيلا إلى الإنصاف ، ولا إلى حرية لا تخضع إلا للوثائق التاريخية .

إن القسيس « لامانس » ذو هوى جامح عنيف ثائر ، وغيره من المستشرقين ذو هوى أيضاً يحاول اخفاءه مكراً ودهاء ، فلا يكاد يستقيم لهم أمر .

ومنهم « لامانس » ساذج كل السذاجة : إنه منهج العكس ، أتدرى ما منهج العكس ؟

إنه ذلك المنهج الذى يأتى إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها – متعمداً – إلى عكسها ، وكلما كان الخبر أوثق بدت – قوية جامحة – الرغبة فى البراعة من ذلك الذى يتبع هذا المنهج ، ولما كان ينبغى أن يستند إلى دعامة ما ، فقد تبنى الفكرة التى تقول :

« إن البشر يعملون غالباً على كتمان عيوبهم والظهور بنقيضها » .

وهذه فكرة لا يمكن أن تتخذ كمبدإ عام ، وإلا كنا مضطرين إلى كتابة التاريخ بأجمعه من جديد ، وعكس صورة الطبيعة كلها عكساً تامًّا .

إن جميع القديسين إذن أشرار ، وجميع الأنبياء طالحون ، وجميع الشجعان جبناء ، وجميع الأديان تهريج . وقد شاع هذا المنهج عند بعض المتحذلقين حتى أصبح « موضة » .

ولقد أراد بعض الظرفاء أن يسخر من أتباعه ، فألف رسالة دلل فيها ، فى براعة بارعة ، على أن نابليون لم يوجد قط ، وأن تاريخه أسطورة ملفقة ابتدعتها فرنسا ، تريد بها التغطية على ما يشاع من ضعفها الحربى .

وقد ذكرت مختلف السير الإسلامية أنباء موثوقاً بصحتها ، إذا وزنا هذه الأنباء بميزان العقل الصحيح ، والمنطق المستقيم ، وإذا ما نظرنا إليها على ضوء دراستنا للبيئة العربية الإسلامية لم يخالجنا شك فى صحتها ، ولكن « لامانس » لا يبالى — متتبعاً منهج العكس — فلا يقيم لهذه الأنباء وزناً ولا يقدر لها قيمة .

نتائج لهذا المنهج صارخة بالخطأ :

١ — وإننا لو نظرنا فى الأناجيل ، من هذه الوجهة ، واتبعنا هذه السنة لوجب أن نتناول كل حسنة فيها ونعكسها . . وإذن لما بقى جديراً بمودة « القسيس » واحترامه إلا « هيرود » ، و « يهوذا » اللذان يجب أن يرفعا إلى مصاف القديسين الأخيار .

٢ — إن مما لا شك فيه ، أن الرسول ﷺ ، كان شجاعاً .

لقد كان يقود الجيوش فى الغزوات ، ولم تطر نفسه شعاعاً فى أية واحدة

منها ، ولا يوم أحد – وقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً – ولم تهله كثرة الجيوش المعادية فى غزوة الخندق ، يوم أن زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر[1] ، ولم ترعه النبال كالمطر ، يوم حنين . . ومع ذلك ، فإن « لامانس » يصفه بعدم الشجاعة ، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة ، يقول :

« زعموا أن العربى يتسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح فى الفتوح الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربى من صفات ومزايا ، ولكنى أتردد كل التردد فى قبول هذا الرأى المبالغ فيه كل المبالغة . . إن شجاعة العرب إنما هى من نوع غير سام » .

والرد على القسيس اللبنانى بسيط ، ويكفى أن نسدى إليه هذه النصيحة ، وهى أن يقرأ آلاف الشهادات التى نالها من قيادة جيوش الحلفاء الجنود المسلمون الشجعان ، الذين حاربوا دفاعاً عما اعتقدوه حقًّا ، فكانوا من عوامل النصر فى الحرب الكبرى . لقد أثارت فرق الهجوم منهم إعجاب العالم أجمع ، وإن هذه

---

(١) قال على كرم الله وجهه : « إنا كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ . فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .

ويعلق فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين ، شيخ الأزهر السابق ، على هذا فيقول : وكذلك تداعى إلى الحق ، ولا سيما المعهود إليه بإبلاغه وتنفيذه : لابد من أن يكون شجاعاً ، رابط الجأش ، على قدر شدة المدعوين وصعوبة مراسهم ، وعلى قدر عظم الحق ومخالفته لمللهم وعاداتهم وأحوالهم فإذا أودع الله تعالى قلب سيدنا محمد ، ﷺ ، شجاعة وسكينة فى مواضع الخطوب ، فلا جرم أن يكون نصيبه من هذه المزية أعظم نصيب ، إذ لا أشد من مراس الأمة التى ابتدأ بإنذارها ، وهى الأمة العربية ، وفى دعوة الإسلام قضاء على مللهم ، وذم لمعبوداتهم ، وإبطال كثير من عاداتهم ، وصرف لهم عن أهوائهم .

الشهادة فى أسلوبها العسكرى الموجز صرح شامخ مجيد ، يسجل روح التضحية ، والبطولة لدى العرب المغاوير .

وإن سهام النقد ، مهما بلغت من العنف ، لا يمكن أن تنال من هذا الكتاب الذهبى النفيس ، ذلك أنه مكتوب بخط قواد منصفين ، لا يمتون إلى الأمة العربية بصلة الجنس أو الدين .

٣ – ومن المعروف أن الرسول كان يتحنث فى غار حراء ، ينفرد بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره ، منصرفاً كل الانصراف عن هذا العالم المادى ، مستغرقاً فى التفكير فى الله ، ولكن ، « لامانس » يؤكد أنه كان يكره الوحدة !

٤ – ومن المعروف أن رسول الله ﷺ ، خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، وكان يأتى على آل محمد الشهر ، والشهران لا يوقد فى بيت من بيوتهم نار ، وكثيرًا ما كان قوته التمر والماء ، وكان رسول الله عليه السلام يعصب على بطنه الحجر من الجوع ، ومع ذلك فإن « لامانس » يصفه بأنه أكول ، وقد كثف جسمه بالملذات ، ولا يذكر شيئاً عن صوم الرسول لشهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس ، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر ، وقد كان الرسول من أكثر المسلمين صوماً ، ولكن القسيس « لامانس » يثبت على عناده !

٥ – ويقول الله تعالى :

(إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من

الذين معك)[1] .

وقد نقلت الأخبار : أن النبى ﷺ ، كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، لطول وقوفه فى الصلاة[2] ومع ذلك فيقول « لامانس » :

كان محمد نؤوماً . . وهو لا شك يجهل ، أو يتجاهل أن روح النقد عند العرب تبلغ حد الإفراط ، وأن هؤلاء لو رأوا ما يكذب خبر القرآن من أن

---

(١) سورة المزمل آية : ٢٠ .

(٢) تحدثنا الروايات الصحيحة : أنه كان ﷺ ، مسلماً وجهه إلى الله تعالى مملوء القلب بخشيته وموصول الهمة بعبادته ، فكان عليه الصلاة والسلام يقوم بالدعوة ويضيف إلى هذا العمل العظيم التقرب إلى الله تعالى بالذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن .

وكان يتهجد بالليل على وفق قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . .

روى الإمام البخارى فى جامعه الصحيح عن المغيرة بن شعبة أنه قال : كان النبى ﷺ يقوم ليصلى حتى ترم (أى تنتفخ) قدماه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً» .

وكان يخص رمضان من العبادة ما لا يخص غيره من الشهور : فيكثر فيه من تلاوة القرآن . والصلاة والذكر . والاعتكاف . وما كان يخرج عنه شهر حتى يصوم منه ، وربما صام أياماً متتابعة ، حتى يقال : لا يفطر .

وكان يواصل الصوم فى رمضان ، أى يصل الليل بالنهار فى الصوم يومين أو أياماً ، ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة وكان ينهى أصحابه عن الوصال ، فيقال له : إنك تواصل ، فيقول : لست كهيئتكم إنى أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى والمراد من إطعام الله وسقيه ، ما يغذيه به من المعارف . وما يفيضه على قلبه من لذة المناجاة . وورد فى السيرة أنه كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر الله .

وكان روح عبادته الإخلاص ، يصلى فى حجرته نافلة كما يصلى فى المسجد ، ويذكر الله خالياً كما يذكره فى جماعة ، ويعمل له فى السر كما يفعل له فى العلانية . (من رسالة عن سيدنا محمد ، لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين) .

الرسول كان يقضي جزءاً كبيراً من الليل فى العبادة لما استمروا على متابعته وتصديقه ، ولما احتفظ هو بثقتهم .

٦ – وأنه لمن المعروف أن العالم لم ينجب من أمثال سيدنا عمر إلا أفراداً يعدون على الأصابع : إن عمر من أعظم الفاتحين المصلحين ، الذين عرفهم التاريخ ، وإن عدالته الرحيمة الصارمة ، وسياسته الحكيمة النافذة ، وإدارته الدقيقة الساهرة . كل ذلك ، يجعله من هؤلاء الذين لا يظفر التاريخ بأمثالهم إلا فى دهور دهيرة ، وإننا حقًّا لا نكاد نجد من يشابهه فى التاريخ ، اللهم إلا إذا كان الإسكندر الأكبر .

ومع ذلك فقد كان عمر فى نظر القسيس جنديًّا مسكيناً ، أدنى مرتبة من الوسط . ولكنه فى كراهيته البالغة للإسلام : ينسى أو يتناسى هذا الوصف حينما يريد أن ينقص – معاذ الله – من شأن الرسول ﷺ ، فيذكر أن عمر سيطر عليه هو وأبو بكر .

وليس عمر وحده هو الذى نال من قلم القسيس ، فقد أخذ القسيس يحطم – كعاصفة هوجاء – كل أخيار المسلمين : الرسول ، أبا بكر ، عمر ، عثمان ، عليا ، فاطمة ، عائشة ، حفصة ، وغيرهم ، وغيرهم . .

٧ – أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام ، كأبى جهل وأبى لهب ، ألد أعداء النبى ، أما إذا ما تحدث عن المنافقين خونة الإسلام ، أما إذا ما تحدث عن يزيد قاتل الحسين ، أو عن بنى أمية – على وجه العموم – فإنه يشيد ما شاء له هواه ، ويمدح ما أمكنه المدح ، ويطرى كلما أتيح له الإطراء ، ويلبسهم من الفضيلة ثوباً لامعاً خلاباً .

ولقد بلغت به الحماسة فى كتابه عن بنى أمية ، حدًّا أثار نفور المسيو «كازانوفا» الأستاذ فى «كليج دى فرانس» فقال :

«كانت نفسية الأمويين فى مجموعها مركبة من الطمع فى الغنى إلى حد الجشع ، ومن حب الفتح من أجل النهب ، ومن الحرص على السلطان من أجل التمتع بملذات الدنيا ، لذلك يحق لنا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكى ، مثل الأب «لامانس» ، يتطوع للدفاع عن أولئك الشاكين الطغاة ، ساخرًا من سذاجة «على» الذى مكروا به وخدعوه .

«وإنها لغريبة حقًّا هذه المباحث التى يبدى فيها هذا المؤلف – المطلع على تاريخ ذلك العصر اطلاعاً حريًّا بالإعجاب – تشيعه للأمويين ضد بنى هاشم ، والتى تتوالى فيها المرافعات الدفاعية ، والاتهامات الادعائية ، آخذاً بعضها برقاب بعض»[1] .

٨ – أما المنافقون فهم أبطال الوطنية ، عند القسيس . وإذا تساءلت : من هو هذا الدخيل الذى لم تنبته الجزيرة العربية ، والذى يقف أمامه «أبطال الوطنية القومية» ، فإنك لا تجد من القسيس إلا صمتاً !

أكان محمد «فارسيًّا» غازياً للجزيرة العربية ؟

أم كان «روميًّا» يهاجمها ؟

أم هو عربى يحب وطنه ويعمل على جمع شتاته فى وحدة تكون قدوة ومثلا أعلى لكل من يشرئب بصره نحو الكمال ؟

وإذا أردنا أن نعد أخطاء «لامانس» فإننا لا نقف عند حد : إنه مثلا

---

(١) كازانوفا «محمد وانتهاء العالم» ص ٥٨ .

يتعمد أن يعطى الألفاظ معنى آخر غير المعنى الذى تعطيه لغويًا اصطلاحيًا ، وكأنه فى ذلك موكل بقلب الحقائق .

إن « الردة » فى نظـــــره معناها « الانفصال » و « المرتدون » هم « الانفصاليون » ، و« المنافقون » هم « المشككون » ، وهم : أبطال الوطنية القومية . وإذا قرأت فى القرآن الآية القرآنية الكريمة :

(إن الله مع الصابرين) .

فسترى أن « لامانس » يشرحها شرحاً أبعد ما يكون عن السمو وعن المكانة العليا التى هى لله فى الإسلام ، إنه يفسرها :

« إن الله مع الساكتين على سياسة محمد المتناقضة » .

ويتحدث عن أبى بكر ، وعمر ، فقط ، فيقول : الثالوث : إنه يقول :

« حكومة الثالوث : أبو بكر وعمر » .

بل يطلق كلمة الثالوث على سيدتين ، فيقول :

« حزب الثالوث المؤلف من عائشة ، وحفصة الدساستين المخوفتين » .

ولا عجب بعد ذلك أن نرى هذا القسيس يأخذ على التوحيد الإسلامى أنه « ضيق » ، لأنه لا يقول :

بأن الله ثالث ثلاثة ، وبأن الثلاثة واحد ، ولا يقول : بأن الأب غير الابن ، ومع ذلك الابن هو الأب .

« إن توحيد الإسلام ضيق - فى نظره - لأنه لا ينطوى على ما تنطوى عليه المسيحية من تلك المتناقضات ، ويقول كتابه الكريم :

(قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) .

وهذا القسيس يفسد – متعمداً – الصور التاريخية ، إنه يحدثنا عن مكة والمدينة فى عهد الرسول ، فيعطينا صورة أوربية حديثة . وكأنه يحدثنا عن باريس ولندن حينما يتحدث فى جزيرة العرب عن الحملة الصحافية ، عن الماليين فى بنك مكة ، مليار النقابة القرشية ، الضريبة على الدخل ، طبقة العمال ، إبلاغ الرسالة إلى محل الإقامة ، ديوان ذى الجلال ، وزارة الله ، إلى آخر هذه التعبيرات الحديثة التى تفسد الصورة ولا تصور الحقيقة .

ومع ذلك فلامانس جرىء ، إنه جرىء جرأة نادرة ، وتتمثل هذه الجرأة فى أنه إذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة ، على خبر واحد يؤيد به زعمه ، وهواه ، استغنى عن الخبر وثبت على مزاعمه الباطلة ، التى يسوقها إلى القراء برشاقة بالغة ، وأحياناً يقول :

« إن هذا أمر عنى رجال الحديث والأخبار بكتمانه »[1] .

وبينما يحترم المسلمون السيد المسيح ، ويجلونه ، نجد « لامانس » يصف مؤسس الإسلام بأبشع ما يمكن أن يظهره الحقد والكراهية ، حتى لكأننا نسمع أسلوب رهبان القرون الوسطى الذين لم يكن فى جعبتهم إلا السباب والشتائم .

الافتتان بالمستشرقين لا أساس له :

إنه لمن الغريب حقًّا – والأمر كذلك – أن يفتتن بعض الشباب المسلمين

(١) لامانس : « هل كان محمد صادقاً ؟ » .

بالمستشرقين رغم ما يرون من كراهيتهم للإسلام ، وتعصبهم ضده ، وجهلهم أو تجاهلهم من أجل حاجات فى أنفسهم .

إنهم يشككون ، ويخطئون جاهلين أو متجاهلين .

لقد وصل بهم الأمر إلى تجريد الرسول ﷺ من اسمه ، زاعمين أنه لم يدع محمداً قط ، وأن حقيقة اسمه ، ستظل من الألغاز التى لا حل لها ، وحجتهم :

إن كلمة محمد نعت ذو معنى خاص ، لذلك يؤكدون أنه لقب ليس إلا »[1] .

كذلك يزعم بعض المستشرقين أن « الرحمن » اسم علم لله ! : ويترجمون البسملة ترجمة تدل على هذا الرأى السقيم : باسم الإله « الرحمن » الرحيم .

ولما كانت ثلاثة أرباع أسماء الأعلام العربية نعوتاً ، فأنت ترى ما فى دراسة الأعلام من منابع غزيرة تصدر عنها مخيلة المستشرقين[2] .

أما أبو بكر – رضى الله عنه – فقد سمى « أبا بكر » لأنه أبو البنت البكر !

والصعيد معناها : السعيد كما فى دائرة المعارف البريطانية .

ولعل فيما ذكرناه ما يخفف من غلواء الإعجاب الذى يبديه بعض متفرنجى الشبيبة الإسلامية نحو المستشرقين .

---

(١) هوار : تاريخ العرب ، جـ ١ ص ٩٠ .

(٢) الشرق فى نظر الغرب . تعريب عمر فاخورى .

نصائح للمستشرقين

ويختم ناصر الدين كتابه القيم « الشرق كما يراه الغرب » بهذه الآراء النفيسة التى نورد بعضاً منها فيما يلى :

لقد أصاب الدكتور « سنوك هرغرنجه » فى قوله : « إن سير محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى مُسبق » .

هذه حقيقة يجمل بمستشرق العصر جميعاً أن يضعوها نصب أعينهم ، فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة ، التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلون إلى نتائج لا شك خاطئة .

فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء إلى هدم بعض الأخبار ، وليس هذا بالأمر الهين ، ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لا ريب مستحيل .

« يحتاج العالم ، فى القرن العشرين ، إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية ، كالزمن ، والبيئة ، والإقليم ، والعادات ، والحاجات والمطامح ، والميول ، والأحقاد إلخ . . لا سيما إدراك تلك القوى الباطنة التى لا تقع تحت مقاييس المعقول ، والتى يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات .

لنضرب مثلاً عكسيًّا : ما رأى الأوربيين فى عالم من أقصى الصين يتناول

المتناقضات التى تكثر عند مؤرخى الفرنسيين . ويمحصها بمنطقه الشرقى البعيد ، ثم يهدم قصة الكردينال ريشيليو كما نعرفها ، ليعيد إلينا ريشيليو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه ؟

« إن مستشرقى العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث لصورة الرسول ، ويخيل إلينا أنا نسمع محمداً يتحدث فى مؤلفاتهم : إما باللهجة الألمانية ، وإما باللهجة البريطانية ، وإما باللهجة الفرنسية ، ولانتمثله قط « بهذه العقلية والطباع التى ألصقت به » يحدث عرباً باللغة العربية .

« إن صورة نبينا الجليلة التى خلفها المنقول الإسلامى ، تبدو أجل وأسمى إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التى صبغت فى ظلال المكاتب بجهد جهيد ، ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم ، فيعدلوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التى رفعها التاريخ إقراراً بفضل أنبياء العرب ، وبنى إسرائيل والهنود على الإنسانية ، فإن أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول .

« وإذا شاء المستشرقون أن تكون جهودهم مثمرة فلينصرفوا عن إضاعتها فى محاربة المنقول الذى هو أسمى من أن يوازيه شىء ، إلى شرح هذا المنقول وإحيائه بدرس نفسية العرب درساً عمليًّا غير سطحى .

كان أحرى بالاستشراق الذى يبنى بحوثه على الجشث – كما هو شأن طلاب الطب – فى تلك القاعات التى تدعى مكاتب ، أن يقتصر على مباحث التحقيق والعلم النقى الصافى .

وهو فى هذه الدائرة ، دائرة الإخراج العلمى ، قد أنجز عملا مجيدًا ، نحن

على رأس المقرين بحسنه ونفعه ، ولكن لم يبق له فيما يتعلق بشأن الإسلام إلا أن يخلى المجال ، ولعله أدرك هذه الحقيقة فأخذ يتوسل بمختلف الوسائل إلى تجديد شبابه آخذاً بأشد أساليب التاريخ الحديثة عقماً ، جادًّا فى طلب أغرب الآراء وأبعدها عن المعقول .

وغاية ما فى الأمر : أنه زاد وجهه تجعدات لم تكن من قبل فيه . ما أشبه نظرياته ، برغم جدتها الظاهرة ، بكتابات للطلاب فى مباراة الشهادات ، التى لا تكاد تولد حتى يمسها الكبر لأنها غير قائمة على درس الحياة ، وإذن غير جديرة بها » .

وثبة الإسلام :

وفى نهاية الكتاب الذى ألفه ناصر الدين عن سيدنا محمد ﷺ كتب عن آماله وأمانيه وتوقعاته وتنبؤاته بالنسبة للإسلام ، ومما كتب فى ذلك :

عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام العبقرى ، كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائيًّا ، وبكل دقة ، حتى فى أقل تفاصيله شأناً . .

وكانت جنود الله قد أخضعت بلاد العرب كلها ، وبدأت فى مهاجمة إمبراطورية القياصرة الضخمة بالشام . .

وقد أثار القلق الطبيعى المؤقت ، عقب موت القائد الملهم ، بعض الفتن العارضة . إلا أن الإسلام كان قد بلغ من تماسك بنائه ، ومن حرارة إيمان أهله ، ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التى لا نظن أن لها فى سجلات التاريخ مثيلاً . .

فى أقل من مائة عام ، وبرغم قلة عددهم ، استطاع العرب الأمجاد ، وقد اندفعوا – لأول مرة فى تاريخهم – خارج حدود جزيرتهم المحرومة من مواهب النعم ، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم ، من الهند إلى الأندلس . .

وقد شغلت – فى قوة – هذه القصة المجيدة ، تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا ، – أعنى نابليون – الذى كان ينظر دائماً إلى الإسلام باهتمام ومودة ، فيقول عن نفسه فى إحدى خطبه المشهورة بمصر. إنه « مسلم موحد »[1] .

ويذكر الإسلام فى أواخر أيامه ، فيرى « أننا إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب ، فلابد أن يكون فى نشأة الإسلام سر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى مجهولة ، جعلت الإسلام ينتصر بشكل عجيب على المسيحية ، وربما كانت هذه العلة الأولى المجهولة : أن هؤلاء القوم ، الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى ، قد صهرتهم – قبل ذلك – حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت خلالها أخلاق قوية ، ومواهب عبقرية ، وحماس لا يقهر ، أو ربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل . .[2].

ولذلك كان نابليون يعلن أن وراء خمول العالم الإسلامى ، فى فترة الانحطاط ، خزائن لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة ، فحاول – فى مناسبات متعددة – أن يستميل المسلمين إلى جانبه ببعض المعاهدات . وكان

---

(١) عن : ش . شرفيس « بونابرت والإسلام » .

(٢) عن : لاس كازاس « مذكرات سانت هيلين » جـ ٣ ص ١٨٣ .

يؤمن بأنه إذا وفق فى ذلك يستطيع أن يوقظ الإسلام من سباته ، وأن يغير بمعونته وجه الأرض قاطبة . .

ولم يكن نابليون مخطئاً فى ظنه ، فقد كانت الحروب الداخلية ، حقًّا ، سبباً فى إظهار سجايا البطولة عند العرب . . ولكنها – إلى جانب ذلك – كانت حجر عثرة فى سبيل كل تقدم ، وكل نظام . . ولولا نبوءة محمد ، لظل هؤلاء الجنود البواسل إلى آخر الزمن ، فى صحاريهم لا يشغلهم شاغل سوى الفتن المتوارثة .

وجاء الإسلام فوضع حدًّا للتفاخر بالألقاب والنسب أو الجنس ، وجعل من المؤمنين إخوة حقًّا ، ونفخ فيهم روحاً جديدة كلها مساواة (١) وتقوى وشاعرية . . فما أروع أعمال البطولة التى استطاع هؤلاء القوم ، ذوو النفوس الحماسية ، والقلوب المنيعة ، أن يقوموا بها بعد ذلك ! . . ولم تكن هذه الكنوز من القوة والحيوية المدخرة ، خلال عصور تقضت فى الحروب الأهلية الطويلة ، هى الذخيرة الوحيدة التى بفضلها دوخ العرب كل هذه الشعوب التى تختلف عنهم كل الاختلاف ، وتفوقهم – فى هذه الفترة – حضارة . . فقد تراكمت فى مخيلاتهم – طوال قرون التأمل بين أحضان الصحارى الشاسعة القاحلة – كنوز أخرى من الأحلام والآمال . . أحلام أمة شابة فتية – وإن كانت غير متمدينة – وآمالها . .

---

(١) فى الآثار الإسلامية : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب » ، « رب أشعث أغبر . . لو أقسم على الله لأبره » ، « يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » إلخ . . .

وسوف نرى هذه الأحلام والآمال تفرض فرضاً على سائر تلك الشعوب التى كانت ثقافتها شائخة منهوكة .

وإننا لننصح لمن قد يستريبون فى عبقرية العرب بتصفح مجموعة من الرسوم التى تمثل المبانى التى خلفوها منثورة فى جميع أنحاء البلاد الخاضعة لهم ، لا شىء يستلفت النظر مثلما تستلفته وحدة الأسلوب المعمارى التى تميز هذه الآثار عن غيرها من آثار العالم . ومع ذلك فهذه المبانى المتشابهة تجدها قائمة فى الهند والتركستان وفارس وتركيا ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا . . إلخ . أى فى بلاد يختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف ، ولها حضارتها ذات الطابع الخاص المتميز الذى لم تستطع حضارة أثينا أو روما ، أن تؤثر فيه بشكل جدى .

ولقد أخذ العرب كثيراً عن كل تلك الدول المنهزمة ، ولجئوا فى أحوال كثيرة إلى استخدام فنييها ، بل عمالها ، لإنشاء قصورهم ومساجدهم ، ولكنهم كانوا دائماً لا يحققون بما أخذوا عنها إلا أحلاماً وأفكاراً عربية صحيحة .

والأسلوب المعمارى العربى نجد طابعه العبقرى المبتكر ، فى أنه دائماً يسترشد بفن جديد نشأ مع الإسلام ، فن لم يكن له مثيل فى الفنون السابقة ، وكان تحقيقاً مادياً لمثل العرب العليا ، إذا صح هذا التعبير . ذلك هو فن الزخرفة الخطية الذى استخدم لتمجيد كلام الله – أى آيات القرآن . .

وإن هذا الفن الخطى العربى ، حتى فى حالة اقتصاره على وسائله الخاصة وحدها ، لهو من أروع الفنون الزخرفية التى تمخضت عنها مخيلة الإنسان ، ولعله الفن الأوحد الذى نستطيع أن نقول عنه دون مغالاة ، إن له روحاً . . فهو كصوت الإنسان ، يعبر عما فى النفس من أفكار . وهو لا يستوحى العالم

الخارجى – مهما بلغ ذلك العالم من التنظيم والتنميق – فى شىء . وهو بذلك ينتسب إلى الموسيقى ، ويبدو وكأنه رمز لمعان تجيش فى أعماق القلوب . .

انظر إلى هذه الحروف التى تثبت من اليمين والشمال ، فى خطوط أفقية سريعة ، ثم تدور حول نفسها فى تموجات هادئة أو عنيفة ، وكأنها فى ذلك تسير وفق هوى روح داخلية خفية ، ثم ترتفع ، ثم تتوقف فجأة وتثبت ، فخورة ، فى أشكال مستقيمة متقاطعة ثم إذا بها تعود إلى الاندفاع فى جموح ، وتحل ما انعقد من أشكالها ، ويداعب بعضها البعض فى مرح لذيذ ، فيندفع معها الخيال فى أحلام لا نهاية لها . .

وليس من الضرورى أن يكون الإنسان مستشرقا ممتازاً ، أو خطاطاً بارعاً ، ليدرك عمق الدوافع التى أدت بالقلم إلى رسم هذه الخطوط ، وليتمتع بالنظر إلى أشكالها المجردة ، أو بالتأمل فى العاطفة القوية التى تظهر فى انحناءاتها . . فكل روح فنانة لابد أن تتصل الأسباب – دون جهد – بينها وبين أسرار هذا الفن .

ولقد سعى فن الزخرفة الخطية العربية – بعد أن أصبح تعبيراً صادقاً لمثل الأمة العربية – إلى أن يخضع لاتجاهاته ، التى يغلب عليها الطابع الدينى ، كل ما من شأنه أن يعين على استكماله ، ووضعه فى الإطار المناسب ، مرغماً فن العمارة والنظم الزخرفية الأخرى على ترسم أساليبه وأشكاله . .

ولقد خضعت لسيطرته وسلطانه ، قبة بيزنطة الكروية الثقيلة ، فاتخذت هيئة أشبه ما تكون بهيئة الخوذة العربية ، وتحولت انحناءات رواقها الذى لم يكن فيه شىء من العبقرية ، إلى أشكال عربية بالغة الروعة ، بينما اتخذت الطوابى

الوضيعة صور المآذن الأنيقة التى ترتفع إلى قمم التجلى . .

وأخيراً : فإن النظام الزخرفى الوحيد الذى يشابه الزخرفة الخطية العربية ، فى كونه لا يستوحى الطبيعة – وهو الزخرفة الهندسية ، ذلك الفن الذى لم يستطع الإغريق واللاتينيون استخدامه إلا فى أشكال ضئيلة لا روح فيها – قد دبت فيه بين أيدى العرب حياة جديدة حقًّا . . وقد أطلق على هذا الفن الزخرفى منذ ذلك الحين اسم له دلالته ، أرابسك .

وراح يتأسى بفن الزخرفة الخطية العربية ، فى البحث عن أعجب ما يبهر الفكر من أشكال عبقرية يحار العقل فى تشابكها الذى لا نهاية له ، وفى تحولاتها المفاجئة .

يالها من آيات غاليات خلفها لنا الفن الإسلامى ! . . إن الهواة الغربيين يتنازعون اليوم آثار هذا الفن غير مبالين بما ينفقونه فى سبيلها ، وهم يأملون من وراء ذلك أن تدخل معها – فى بيوتهم المظلمة – بعض انعكاسات الأحلام التى استوحاها الفنانون العرب . . وأنه لمجد الإسلام ، يتغنى به فى هذه الديار ما نشهده من تحف تبلغ الغاية من الدقة والجمال والإشراق . . وإنا لنرى الذوق الغربى يتجه الآن إلى اقتناء آيات فن الخط العربى الذى – بنقله لكلام الله – ينفخ روحا قوية فى زخارف المصاحف ، أو صدف الآنية .

والغربيون – فى ذلك – يترسمون خطى الأمراء العرب ، أيام عصر الإسلام الذهبى حيث كانوا ، فى سبيل الحصول على صحيفة مخطوطة ، بقلم أحد الخطاطين المشهورين ، يبذلون مجهودات جنونية نستطيع مقارنتها بتلك التى تبذل فى أيامنا هذه ، لاقتناء تحف فن التصوير .

ولكن ! . . أيتها الآيات المقدسة ، التى تبهرين أصحابك الجدد ، وتثيرين إعجابهم العميق ، بأشكالك الرقيقة ، ألا تكشفين لهم يوماً القناع عن سمو جمال روحك الإسلامية ؟ . .

أثر الحضارة الإسلامية فى أوربا

لقد أدهشت كل تلك العجائب عقول أهل أوربا ، حتى فى أعنف أيام عدائهم للإسلام . وقد نقلوا كثيراً من العرب فى ميدان الزخرفة والمعمار . ولا شك أن دراسة أكثر عمقاً لهذا الموضوع ، من شأنها أن تبرهن على أن أوربا قد تأثرت بالفنون العربية أكثر مما تأثرت بالفنون الإغريقية واللاتينية . . ولكن مثل هذه الدراسة قد تبعدنا عن الغرض الأساسى من هذا الكتاب ، ونكتفى هنا – على سبيل التلميح – بالإشارة إلى المؤرخ « دولور » الذى يقول :

« إن مهندسى العرب قد عملوا فى بناء كنيسة نوتردام بباريس » .

أما فى ميدان العلوم ، فإن أثر المسلمين لم يكن بأقل خصباً ولا نرى من وسيلة لتوضيح هذا أفضل من نقل رأى الدكتور جوستاف لوبون فى ذلك ، ونجده فى كتابه القيم « حضارة العرب » :

« ويعزى إلى بيكون – على العموم – أنه أول من أقام التجربة والملاحظة ، اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ . . ولكنه يجب أن نعترف قبل كل شىء ، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم .

ويقول العلامة الشهير همبولد – بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة

والملاحظة هو أرفع درجة فى العلوم – إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة[1] التى كان يجهلها القدماء تقريباً .

---

(١) يقول الدكتور هيكل فى كتابه عن سيدنا محمد :

«لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد ، بل لعلى أكون أوفى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث بالعربية على الطريقة الحديثة . . وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة الحديثة العلمية من شبه قوى ، فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة . ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية ، فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته» .

ويعقب فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغى على هذا الرأى فيقول :

«أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكماً ، والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنب من يتبع الظن وقال : (إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) . . وعاب تقديس ما عليه الآباء وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . . ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا فى القرآن ، وهى معجزة عقلية ، وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

وأما أن هذه الطريقة حديثة ، فهذا لا يعتذر عنه ، وقد ساير الدكتور غيره من العلماء فى هذا ، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . . انظر إلى كتب الكلام تراهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله . فيقول آخرون : لا – إن أول واجب هو الشك ، ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان ، وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية أو منتهية إلى الحس ، أو مدركة بالبداهة ، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام ، على ما هو معروف فى المنطق ، وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان .

وقد جرى الإمام الغزالى على الطريقة نفسها . وقد قرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ، =

وكانت دراسة العلوم الرياضية من الدراسات الذائعة لديهم ، وقد تقدم علم الجبر بفضلهم حتى إنه قيل إنهم مخترعوه . . ولقد كان لهم أيضاً قصب السبق فى تطبيق الجبر والهندسة ، وهم الذين أدخلوا النماس فى حساب المثلثات . .

«وكان علم الفلك يدرس بحماس فى مدارس بغداد ودمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة وغيرها . تلك المدارس التى وصلت إلى اكتشافات عديدة يمكن إيجازها فى القائمة التالية :

إدخال خط النماس فى الحسابات الفلكية ، ووضع جداول لحركة الكواكب ، وتحديد سمت الشمس تحديداً دقيقاً وتدرجه ، وتقدير تقدم الاعتدالين تقديراً صحيحاً ، وأول تحديد صحيح لمدة السنة .

ثم إننا مدينون لهم أيضاً بإثبات ما فى أكبر خط عرض للقمر من ضروب

= ثم فكر وقدر ورتب ووازن ، وقرب وباعد ، وعرض الأدلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق ، وإلى ما اهتدى إليه من الآراء . وقد فعل هذا ليتجافى التقليد ، وليكون إيمانه إيمان المستبقن ، المعتمد على الدليل والبرهان ، ذلك الإيمان الذى لا يختلف المسلمون فى صحته ونجاة صاحبه

وأنت واجد فى كتب الكلام . فى مواضع كثيرة ، حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد ثم البحث والنظر ، فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة ، فليس هناك جديد عندنا ، ولكن هذه الطريقة القيمة بعد أن نسيت فى التطبيق العلمى والعمل فى الشرق ، وبعد أن تفشى التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رجعنا نأخذ عنهم ونراها طريقة فى العلم جديدة .

هذا القانون العلمى فى البحث معروف قديماً وحديثاً ، والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير ، ولا يتفاوت الناس كثيراً فى معرفة القانون ، ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت فى تطبيق القانون . "

(من مقدمة فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى لكتاب «حياة محمد» للدكتور هيكل) .

عدم الانتظام ، واستكشاف عدم التساوى القمرى الثالث المعبر عنه اليوم بالتغيير .

« وكان النصيب الذى أسهم به هؤلاء الرواد ، الذين يمتازون بالجرأة والإقدام نصيباً ضخماً . . فمن الناحية العلمية كانت لهم هذه التحديدات الفلكية الصادقة التى هى أول أساس للخرائط ، كما عملوا على تصحيح الأخطاء الفاحشة التى وقع فيها الإغريق .

أما من ناحية كشف بقاع العالم المجهولة فقد نشروا رسائل فى الرحلات تعرف الناس بأقطار العالم المختلفة التى كانت شبه مجهولة من قبل ، والتى لم يسبق للأوربيين ارتيادها .

« وإننا نجد فى خريطة من خرائط الإدريسى ترجع إلى عام ١١٦٠ منابع النيل بين البحيرات الاستوائية الكبرى مرسومة رسماً دقيقاً ، وهى تلك المنابع التى لم يكشفها الأوربيون إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

« وسجل مكتشفاتهم فى ميدان العلوم الطبيعية أعظم من ذلك ، والبيان التالى يوضح أهمية هذه المكتشفات :

« معلومات عالية فى نظريات علم الطبيعة ، وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الضوئية . . اختراع أجهزة آلية من أبدع مايكون . . اكتشاف علائق الأجسام بأصل علم الكيمياء مثل الكحول والحامض الكبريتى وأهم العمليات الأساسية فى هذا العلم كالتقطير – تطبيق الكيمياء فى ميدانى الصيدلة والصناعات ، وخاصة فيما يتعلق باستخراج المعادن ، وصناعة الفولاذ ، والصباغة ، وغير ذلك . . صناعة الورق من الخرق ، والاستعاضة به عن رق الغزال وورق

البردى والحرير الصينى . . ومن المحتمل أنهم أول من استخدم البوصلة فى الملاحة . . ومن المحقق أنهم أدخلوا هذا الاختراع الأساسى فى أوربا . . وأخيراً : فهم قد اكتشفوا الأسلحة النارية. ففى عام ١٢٠٥ استخدم الأمير يعقوب المدفعية فى حصار مدينة المهدية ، وفى عام ١٢٧٣ استخدمها السلطان أبو سيف فى حصار مدينة سجلماسة . وقد حضر كونت درب وكونت سالسبرى الإنجليزيان فى حصار مدينة الجزيرة التى دافع عنها العرب بالمدافع ، فشاهدوا نتائج استخدام البارود ، فنقلا ذلك الاختراع إلى بلادهم ، فاستخدمه الإنجليز فى معركة كريس بعد ذلك بأربع سنوات .

أما فيما يتعلق بالطب ، فقد استوحى العرب أولا كتب الإغريق ثم ساروا بهذا الفن خطوات هامة إلى الأمام . .

وتكاد تكون سائر المعارف الطبية فى أوربا خلال عصر النهضة ، مأخوذة عن العرب ، وأهم ماحققه العرب فى ميدان الطب يتعلق بالجراحة ووصف الأمراض ، وبالأدوية والصيدلة ، وقد ابتكروا وسائل علاجية متعددة ، ظهر بعضها فى العالم الطبى حديثا بعد أن قضت عليها قرون من النسيان ، مثال ذلك استخدام الماء البارد للطب للحمى التيفودية . .

والطب مدين لهم بكثير من المواد الطبية مثل : خيار الشنبر ، والسنى المكى ، والرواند ، والتمر هندى والكافور والكحول والقلى وغير ذلك . . وإننا مدينون لهم بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم مثل الأشربة وصنوف اللعوق ، واللزق والمراهم والأدهان والماء المقطر . وغير ذلك .

«كذلك الجراحة ، كان للعرب الفضل فى تقدمها الأول ، فكانت

مؤلفاتهم هى المراجع الأساسية التى تدرس بالمعاهد الطبية إلى عهد قريب جدًّا . . لقد كانوا فى القرن الحادى عشر الميلادى يعرفون علاج الماء الذى ينصب فى العين (الكاتاركتا) بالتحويل أو استخراج البلورية ، ويعرفون كيفية تفتيت الحصاة وعلاج النزيف بصب الماء البارد ، كما كانت لهم خبرة باستخدام الكاويات ، والأحزمة ، والكى بالنار لتطهير الجراح . . وإن التخدير الذى يظن الناس أنه اكتشاف حديث ، يبدو أن العرب لم يجهلوه ، فقد كانوا يوصون باستعمال نبات الزوان – قبل العمليات المؤلمة – لتنويم المريض حتى يفقد الوعى والحساسية . .

« وكانت لهم أيضا ثقة عظمى فى الوسائل الصحية لعلاج الأمراض وكانوا يعتمدون كثيراً على القوى الطبيعية ، والطب النظرى ، الذى يبدو وكأنه الكلمة الأخيرة للعلم الحديث ، يوافق هذه الفكرة فى استدلالاته

أثر المسلمين فى ميدان الفكر :

ولعل أثر المسلمين فى ميدان الفكر كان أخطر شأناً ، فقد دعا عيسى إلى المساواة والأخوة ، أما محمد فوفق إلى تحقيق المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته . .

وإنه يكون من الحمق أن نزعم أن الإسلام أثر مباشرة فى خطط الثورة الفرنسية التى كان رجالها يجهلون معظم ماقام به محمد فى سبيل المساواة بين الناس – ولكننا نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الأولى فى السعى إلى تحرير الفكر كانت أثراً منطقيًا للمبادئ التى جاء بها محمد : فإلى الفيلسوف المسلم ابن

رشد الذى عاش فى أسبانيا من سنة ١١٢٠ إلى سنة ١١٩٨ يرجع الفضل فى إدخال حرية الرأى – التى يجب أن لانخلط بينها وبين الإلحاد – إلى أوربا . .

وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة ، والتجسيم المسيحى ، بعقيدة الإيمان بالله وحده فى الإسلام ، وتحمس أحرار الفكر فى العصر الوسيط الأوربى لشروحه لأرسطو ، وإن كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية . . ويمكن أن نعتبر – بحق – أن التيار الفكرى الذى نشأ عن هذا التحمس لابن رشد ، كان أصل التفكير المنطقى الحديث ، فضلا عن كونه من أصول الإصلاح الدينى .

أثر الأخلاق الإسلامية :

ولم يكن أثر الأخلاق الإسلامية بأقل من ذلك شأنا فى أوربا فقد كان العرب يمتازون ، إلى جانب روح التسامح الدينى – التى سوف نتحدث عنها فيما بعد – بأخلاق الفروسية القوية . . وفى ذلك يقول الكاتب الإسبانى الكبير « بلاسكو إيبانيز » فى قصته « فى ظل الكنيسة » :

« لقد نشأت روح الفروسية بين عرب إسبانيا ، وأخذها عنهم فيما بعد أهل الشمال ، زاعمين أنها طبيعة من طبائع الأمم المسيحية » . .

ولنذكر فى هذا الصدد مرة أخرى ، ملاحظات الدكتور جوستاف لوبون ، إذ يقول :

« لقد كانت للفروسية العربية أصولها ، كما للفروسية المسيحية التى جاءت بعدها ، فلم يكن المرء فارساً إلا إذا تحلى بالخصال العشر التالية : الصلاح ،

والكرامة ، ورقة الشمائل ، والقريحة الشعرية ، والفصاحة ، والقوة ، والمهارة فى ركوب الخيل ، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب .

« وقد حاصر والى قرطبة فى سنة ١١٣٩ مدينة طليطلة التى كانت بيد النصارى ، فأرسلت إليه الملكة « بيرانجير » التى كانت فيها رسولا يبلغه أنه ليس من مروءة فارس كريم رقيق الشمائل أن يحارب امرأة ، فارتد القائد العربى من فوره ، ولم يطلب مقابل ذلك سوى أن يشرف بتحية الملكة »[1] .

« وسجلات تاريخ العرب بإسبانيا حافلة بمثل هذه النوادر التى تبين كيف كانت أخلاق الفروسية هذه ذائعة بينهم . . ويعترف عالم قوى الإيمان هو « بارتليمى سانت هيلير » فى صدق وصراحة بما تدين به الأخلاق الأوربية للعرب ، إذ يقول فى كتابه عن القرآن :

« عندما اتصل الأوربيون بالعرب واقتدوا بهم ، لانت العوائد الخشنة لدى

---

(١) يقول المؤلف فى رسالته « أشعة خاصة بنور الإسلام » مايلى :

« وقد حفظ لنا التاريخ فى سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقة والتهذيب ، وقد ذكر منها الكثير واصف باشا بطرس غالى فى كتابه « فروسية العرب المتوارثة » وهو وإن كان قبطيًّا مسيحيًّا فإن لأقواله قيمة عظيمة وهى الرد الصحيح على ما جاء به « بيرون » من الادعاءات والتعصب .

« يقول واصف باشا : كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن ، وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التى استنها فوق ما هو بالقواعد والتعاليم التى وضعها ، وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين ، وإن يكن عظيم الاحترام والتكريم لهن ، لم يكن ذلك خاصًّا منه بزوجاته ، بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء . .

فهل نستطيع أن نقول شيئاً من هذا عن الكثير من رجال الكنيسة . . وقد كان أحدهم « سان بونافنتور يقول لتلاميذه : « إذا رأيتم (المرأة) فإن الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان »

أشراف القرون الوسطى القساة ، وتطلع أهل الفرسية – دون أن يفقدوا لذلك طبائع الشجاعة والنخوة – إلى عواطف أرق من عواطفهم وأشرف وأليق بالإنسانية . ومن المشكوك فيه أن تكون المسيحية – مهما بلغت تعاليمها من السمو – هى وحدها التى أوحت إليهم بكل ذلك » .

السبب فى إنكار علماء الغرب آثار الإسلام فى الحضارة الغربية :

ولعل القارئ يتساءل – والظروف كما ذكرنا – عن السبب فى إنكار كل أثر للإسلام لدى علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب دينى .

وتفسير ذلك : أن الواقع يشهد بأن حرية الرأى مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية . وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء فى مسائل معينة – ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه ، قد عاش فيهم دهوراً طويلة ، حتى أصبح جزءاً من كيانهم . .

فإذا أضفنا إلى هذا التعصب الدينى تعصباً آخر هو أيضاً موروث تزيده الأجيال المتتالية تمكناً من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التى تسير عليها مدارسنا ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الإغريق واللاتين وحدهم ، أدركنا – فى يسر – كيف ينكر الناس عامة ، ذلك الأثر العظيم الذى كان للعرب فى تاريخ الحضارة الأوربية .

وسوف يبدو دائماً لبعض العقول أنه من المهانة أن تدين أوربا المسيحية للمسلمين بإخراجها من ظلمات البربرية والتوحش .

سبب تدهور المسلمين :

ولعلنا بعد هذا نتساءل : لماذا – إذن – وقع المسلمون فى مثل هذا التدهور السريع بعد أن ظل الإسلام طوال قرون ثمانية يجعل من إسبانيا الخاضعة له أرفع الأمم الغربية حضارة ، ويرسل نوره الذى لايخفت فى أرجاء العالم من دلهى وبخارى إلى القسطنطينية وفاس ؟

السبب الأول : نجده فى الخروج عن مبادئ المساواة التامة الشاملة التى بذل الرسول كل جهده خلال سنى حياته فى فرضها ، والتى كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول . . ولنضرب لذلك مثلا يوضح كيف كانت هذه المبادئ تطبق فى شدة بالغة فى الصدر الأول للإسلام :

لطم جبلة – أحد الأمراء الأقوياء المعتدين بأنفسهم – عقب إسلامه رجلا من البدو زاحمه فى الكعبة لطمة عنيفة ، فأمر الخليفة عمر أن يضرب البدوى الفقير الأمير جبلة مثلما ضربه . . ولم يأبه عمر فى حكمه بمكانة المذنب ، ولابخطورة إغضاب رجل له من الشأن ماالجبلة ، بل رأى أن كرامة الإسلام ومستقبله يقتضيان تطبيق مبادئ المساواة أمام القانون قبل أى اعتبار آخر .

وبفضل هذه المبادئ القوية التى لاتلين ، لم يكن لأحد أن يفخر إلا بما عمل ، وأدى التنافس بين المسلمين فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام إلى ضروب من المعجزات ، ولم يرق إلى مناصب القيادة سوى الجديرين بها – وكان الناس يطيعون قادتهم فى كل صغيرة وكبيرة لأنهم كانوا يحترمونهم ويجلونهم مخلصين . .

ولكن – للأسف – لم يحافظ المسلمون محافظة كاملة على هذه المبادئ

الأساسية لدين محمد إلا لفترة قصيرة . . ولقد رأينا التفاخر بالأنساب والقبائل يظهر من جديد بآثاره الهدامة فى عهد عثمان ثالث الخلفاء ، وأضاع الناس حكمة محمد التى تجلت فى وصيته لابنته المحببة فاطمة الزهراء : « يافاطمة بنت محمد ، انقذى نفسك من النار فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » – فقد ذهب أناس – هم دون ذلك شأناً – إلى الفخر بآبائهم ، وإلى احتقار إخوانهم فى الإسلام الذين ينتسبون إلى الطبقات المغمورة ، وظنوا أنهم معفون لعراقة أصلهم من الجهاد فى سبيل الإسلام وفى سبيل الرزق ، ذلك الجهاد الذى بدونه لا يمكن تحقيق أى تقدم .

وبالإضافة إلى ذلك ثارت المنافسات بين الذين يعتمدون فى حياتهم على مكانة أجدادهم أكثر مما يعتمدون على أعمالهم الشخصية ، وكانت نتيجة ذلك قيام الفتن الأهلية التى تكاد تكون فى عنفها واتصالها – مشابهة لما كان منها فى الجاهلية ، وترتب على ذلك أن تفككت النظام ، وظهرت من جديد تلك الفوضى العامة الشاملة ، التى كانت تشل أيدى العرب عن كل عمل مجد فى عصور ماقبل الإسلام ، وفقد المسلمون حب الاستطلاع ، وفرقت بينهم وأنهكت قواهم الحروب الداخلية .

ولم يكن الإسلام ، سواء فى ماضيه أو فى حاضره ، ليصاب بتلك النكبات لو أن المسلمين عملوا دائماً بتلك الوصية الأخيرة التى أوصاهم بها الرسول فى خطبته :

« أيها الناس . . إنما المؤمنون إخوة » . .

أما السبب الثانى فى تدهور العالم الإسلامى ، فهو ناتج عن التخلى عن

إحدى المميزات الأساسية للإسلام ، وهى التوافق التام بين العقيدة – التى تكاد تكون خالية من كل ما هو غير طبيعى – وبين ضرورات المنطق . . وكان لتلك الميزة فى العهد الأول أثر بعيد فى تقدم العلوم التى لم تعقها أية معتقدات خرافية . . وهذا يكفى لتفسير التطور السريع الذى تطورته الحضارة الإسلامية . لكن الروح الإسلامية العلمية خمد حماسها شيئاً فشيئاً ، مكتفية بالنتائج الباهرة التى حصل عليها المسلمون فى حمية النشاط الذى كان فى القرون الأولى للهجرة ، ومنذ ذلك العهد والإسلام وقع تحت رحمة النزعات الخرافية فى الأقطار الحديثة .

مستقبل الإسلام :

إن الجراح التى أصابت الإسلام ، خلال نصف القرن الأخير[1] قد أيقظته من سباته ، وأقنعته هزيمته نفسها بضرورة تبنى الوسائل العلمية التى يستخدمها أنصاره ، وتذكر المسلمون أحاديث الرسول :

« اطلبوا العلم ولو بالصين » .

« العلم خير من العبادة » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء » .

ولقد قام مصلحون عباقرة -- من أمثال الشيخ محمد عبده – برسم السبيل الذى يجب على المسلمين أن يسيروا فيه ، مبرهنين على أنه يمكن التوفيق بين الإسلام

(١) يقصد القرن التاسع عشر.

وبين مقتضيات الحضارة الحديثة ، ولم يمض وقت طويل حتى ذهب الكثير من الشباب فى سائر البلاد الإسلامية ، إلى التعلم على الطريقة الأوربية فى سهولة تكيف عجيبة ، دون أن يفقدوا شيئاً من عناصر قوميتهم الأصيلة ، وسوف نرى عما قريب العدد العديد من المسلمين ، يحتلون مكانهم فى العالم الحديث ولايهابون أن ينافسوا رجال الغرب فى ميدان الحضارة العصرية[1] .

لقد اعترض على إمكانية هذه النهضة بأنه يقف فى سبيلها عقبات قوية هى : عقيدة القضاء والقدر ، والتعصب ، وتعدد الزوجات . .

عقيدة القضاء والقدر :

فلنعرض سريعا لهذه المسائل : هل عقيدة القضاء والقدر الإسلامية يمكن أن تتفق مع الجهاد الصحيح فى سبيل التقدم ؟

إذا كنا نجد بعض الوجاهة فى شىء من النقد الموجه إلى المسلمين فى هذا المجال ، فلأن بعض المسلمين من أمثال أتباع «المرابطين» يسيئون فهم التوكل ، وعلى أى حال فلم يكن لهذا التوكل الأثر المبالغ فيه الذى يراد إلصاقه به . . والإسلام ليس فيه من التوكل أكثر مما فى مذهب إنكار فعل العزيمة الشخصية والقول بالأسباب الخارجية .

بل القضاء والقدر فيه يكون أقل خطورة منه فى المسيحية ، لو اتبع المسيحيون حرفية تعاليم الإنجيل الذى يقول :

---

(١) حذفنا من هنا بضعة سطور تاريخية لم تعد لها قيمة نذكر بعد مرور كل هذه السنين على تأليف الكتاب .

ولذا أقولها لكم : لا يقلقنكم أن تبحثوا عن الجهة التى تجدون فيها ماتأكلون وماتشربون لاستبقاء حياتكم ، ولا الجهة التى تجدون فيها الثياب لكساء أجسادكم » . (إنجيل متى : ٥ ، ١٨ ، ٦ : ٢٥) .

كيف نقول : إن عقيدة القضاء والقدر تشل كل عمل عند المسلمين ، والرسول ، ﷺ ، كان أنشط الناس وأكثرهم مثابرة وجهاداً ، والإسلام هو الدين الوحيد الذى جاء – عقب نشأته مباشرة – بالفتوح الواسعة العجيبة ، والحضارة السامية العظيمة ؟ . .

إن كلمة « إسلام » تعنى الرضاء بأوامر الله – أى بما لايمكن لأى قوة إنسانية أن تحول دونه ، ولكن ليس من معانيها الخضوع للأمور التى يبدو أنها يمكن أن يغير مجراها العمل والإقدام . . (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) . . فهذه العقيدة – إذن – بعيدة كل البعد عن أن تكون مصدر ضعف . إنها على العكس من ذلك مصدر قوة نفسية لاتضارع بالنسبة إلى المسلم تعينه على احتمال المحن والشدائد[1] .

---

(١) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

(يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال . . .) الآيات .

(يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين . . .) الآية .

(فإما تثقفنهم فى الحرب . . . . .) الآية .

وفى الحديث : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، « لأن يأخذ أحدكم حبلاً » .

التعصب :

ونعرض – بعد ذلك – لموضوع التعصب فنتساءل : ألا يعوق تقدم المسلمين ، وعلاقاتهم بالمتحضرين من أبناء الأديان الأخرى ، تعصب هؤلاء المتحضرين العنيف الذى لاهوادة فيه ، الذى هم يرمون به المسلمين ؟ . .

والمسألة هنا – هى قبل كل شىء – أن نعرف ما إذا لم يكن هذا التعصب عند المسلمين أسطورة من تلك الأساطير التى لاتحصى ، والتى أذاعها أعداء الإسلام فى القرون الوسطى .

وفيما يلى بعض الوقائع اخترناها من بين عدد كبير من أمثالها ، نسردها هنا ليتمكن القارئ من الحكم فى هذا حكماً صحيحاً .

يروى ابن جرير نقلا عن ابن عباس ، أن رجلا من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين ، وله ولدان مسيحيان ، وهو مسلم ، سأل الرسول ﷺ فيما إذا كان يجب عليه إكراه ولديه على اعتناق الإسلام ، وهما يرفضان كل دين غير المسيحية ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة : (لا إكراه فى الدين) .

وعندما جاء رسل نجران المسيحيون المدينة ليفاوضوا النبى منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه .

وقام محمد يوماً لجنازة ، فقيل له : إنها جنازة يهودى ، فقال : « أليست هى نسمة ؟ »

وهو القائل :

« من آذى ظلماً يهودياً أو نصرانياً كنت خصمه يوم القيامة . . قد يدوم

الملك على الكفر ولكنه لايدوم على الظلم » .

والمسلمون – على عكس مايعتقده الكثيرون – لم يستخدموا القـوة أبداً خارج حدود الحجاز أى الأرض الحرام والمنطقة المحيطة بها – لإكراه غيرهم على الإسلام . . وأن وجود المسيحيين فى إسبانيا لدليل واضح على ذلك ، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التى ملك فيها المسلمون بلادهم ، وكان لبعضهم مناصب رفيعة فى بلاط خلفاء قرطبة . . ثم إذا بهؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان فى هذه البلاد ، فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تامًّا على المسلمين ، وقد ألحقوا بهم أيضاً اليهود الذين عاشوا فترة آمنة هادئة تحت حكم المسلمين . .

وفى كتابه « رحلة دينية فى الشرق » يشيد الأب « ميشون » بالحقيقة فى صيحته الصادقة : « إنه لمن المحزن بالنسبة إلى الدول المسيحية أن يكون المسلمون هم الذين علموها مبادئ التسامح الدينى الذى هو الناموس الأكبر للرحمة والإحسان بين الأمم[1] » .

وقد يعارض قوم فيذكرون مذابح الأرمن ، ويتساءلون : ما القول فيها ؟ . . والرد على ذلك أن المسلمين الحقيقيين يستنكرون كل شىء من هذا القبيل مالم تدع إليه الفتن والمؤمرات ، تماماً كما يستنكر المسيحيون الحقيقيون مذبحة جميع المسلمين فى إسبانيا .

والواقع أن مذابح الأرمن لم تكن قط لأسباب دينية ، ذلك لأن أتباع دين محمد لم يدر بخلدهم قط أن يقتدوا بأنصار « توركويمادا » فيخيرون الأرمن بين

(١) نقلا عن « الكونت دى كاستري » فى كتابه عن الإسلام .

ترك المسيحية إلى الإسلام وبين أن يحرقوا أحياء . . وعلى أى حال ، فالمسلمون لايأنسون فى أنفسهم أى ميل لرد الناس عن دينهم ، وليس لهم مبشرون حقيقيون وإذا كان الإسلام هو الدين الذى يجذب إليه أكثر الناس فى أفريقيا وفى آسيا فى عصرنا هذا ، فذلك – كما لاحظه ملاحظة صحيحة المسيو بوردو – «يرجع إلى نوع من الامتصاص المعنوى[1] » .

وإن القدوة الحسنة التى لاتقترن بمحاولة التبشير المتعصبة ، لهى أقوى أثراً فى النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين . . ولقد اضطر العالم « دوزى » – برغم تعصبه ضد الإسلام – إلى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا فى إسبانيا « اعتنقوا الإسلام عن عقيدة » . .

والقاعدة التى يجرى عليها المسلم ، فى علاقاته بأصحاب الديانات الأخرى ، هى تلك التى حددها القرآن فى الآية التالية :

(لكم دينكم ولى دين) . .

وكيف لايكون المسلم متسامحاً ، وهو يجل الأنبياء الذين يجلهم اليهود والنصارى ؟ فموسى بالنسبة إليه « كليم الله » وعيسى « روح الله » يجب تبجيلها كما يبجل محمد « حبيب الله » . (ولا نفرق بين أحد من رسله) . .

ولن يجرؤ مسلم قط على التفوه بأقل بادرة فى حق عيسى ، وكذلك لن يقبل أن يدع أحداً يتفوه بمثل هذا فى حضرته ، حتى وإن كان من يحدثه من هؤلاء المسيحيين الأصليين الذين يريدون أن يجعلوا من عيسى المسئول عن الأخطاء الكهنوتية ، وسب المسيح لاشك يعتبر سبًّا للإسلام الذى يأمر باحترامه .. ولقد

(١) عن : . بوردو (العرب فى أفريقية الوسطى) .

أتيح لنا أن نشهد حادثاً عجيباً ، هو أن قاضياً مسيحيًّا حكم على رجل مسلم لضربه يهوديًّا بدرت منه أمامه أقوال بالغة الإسفاف فى شأن ولادة عيسى . .

ولنقارن الآن بين موقف الإجلال هذا الذى يقفه المسلمون من عيسى ، وبين ما صنعه الأوربيون من سيرة محمد :

فى العصور الوسطى ، كان الرهبان يصورونه تارة فى صورة صنم بشع ، وتارة فى صورة سكير مدمن . . إلخ .

ولو أننا أردنا أن نثبت هنا كل ماتمخضت عنه قديماً مخيلات أعداء محمد الخصبة لما انتهينا إلى حد . .

لم يكن المستشرقون الأول بأقل عنفاً فى مهاجمته من هؤلاء :

والعالم جانييه – فى القرن الثامن عشر – يعيب على القس المراكشى والدكتور بريدو إسفافهما المتحيز ضد محمد ، ولكنه – فيما بعد – يسف أكثر من إسفافهما ، ويصف محمداً بأبعد الأوصاف عن سيرته ، ومع هذا فالعالم جانييه يزعم أنه معتدل كل الاعتدال فى حكمه . .

ومن زمن بعيد وأعداء الإسلام يلحقون الأذى بأصحاب محمد أيضاً ، وقد ألف بعضهم تلك الأسطورة الذائعة التى تقول بأن الخليفة عمر أحرق مكتبة الإسكندرية ، ولم يكن غرضهم من ذلك إلا أن يجعلوا الناس تنسى العمل الوحشى الذى قام به الكاردينال كسيمينيس من إحراق دور الكتب البديعة التى كانت للمسلمين بإسبانيا ، وهم فى زعمهم هذا يبدون استخفافاً لاحد له بوقائع التاريخ . . ذلك أن مكتبات الإسكندرية قد خربت قبل مجىء الإسلام بقرون متعددة ، وأولى هذه المكتبات هى مكتبة البرخيوم التى كانت تحتوى على أربعمائة

ألف مجلد ، وقد أحرقت فى أثناء الحرب التى نشبت بين قيصر والإسكندريين . وثانى المكتبات هى مكتبة السرابيوم التى ضمت فى يوم من الأيام مائتى ألف مجلد أوصى بها لها أنطونيوس ، وقد نهبت هذه المكتبة وخربت تماماً فى عهد ثيودوزيوس .

وقد أخذت هذه الخرافات السخيفة تتلاشى فى أيامنا هذه . . على أننا نفضل مافيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التى يريد بعض الكتاب الذين لم يتخلصوا بعد من طبائع القرون الوسطى المسيحية ، أن يذيعوها – تحت ستار من العلم الاستشراقى الظاهرى – فى حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم – أكثر من غيرهم – تاريخ الإنسانية نفسه . .

وقد يسأل سائل : ألا ينتهى الأمر بالمسلمين بعد أن تبنوا حضارة المسيحيين إلى أن يتدينوا كذلك بالمسيحية ؟ ويكفينا للإجابة على هذا السؤال أن نورد رأى كاتب صريح فى اعترافه بالواقع برغم تمسكه الشديد بدينه – ذلك الكاتب هو : «الكونت دى كاستر» الذى يقول فى مؤلف له ممتاز عن الإسلام :

«الإسلام هو الدين الوحيد الذى لاتجد فيه مرتدين . . . ومن العسير ، بل من المحال أن نتصور صورة دقيقة للحال النفسية التى يكون عليها المسلم إذا ماحاول أحد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية . . لعلنا نجد صورة مقاربة شيئاً ما لهذا ، إذا ماتخيلنا إحساسات وشعور رجل مسيحى مستنير يحاول أحد الوثنيين أن يجتذبه إلى اعتناق خرافاته المرذولة[1] » .

(١) عن الكونت هنرى دى كاستر : الإسلام .

فما عسى أن تكون علة ذلك البغض الذى يلاحق به المسيحيون الإسلام حتى فى عصرنا هذا ، عصر التسامح ، ولانريد أن نقول : عصر عدم المبالاة بالدين — فى حين أن الإسلام يقدم لهم كثيراً من الأدلة التى تؤكد احترام عيسى وتبجيله ؟

هل يكون ذلك لأن الإسلام كانت نشأته فى آسيا ؟

ولكن ، ألم تكن المسيحية فى جوهرها ، ديانة آسيوية قبل أن يخلصها بولس القديس من اليهودية ؟ وقد قال عيسى نفسه : « لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة » (إنجيل متى ١٥ — ٢٤) .

ولعل العلة فى العقيدة نفسها ؟ ولكن عقيدة الإسلام تكاد تكون مماثلة لعقائد بعض الفرق البروتستانتية التى تأثرت بالإسلام فاحتذت حذوه . .

أو هل سبب ذلك يرجع إلى الآثار التى خلفتها الحروب الصليبية فى النفوس ؟

ذلك أمر لاشك فيه ، فرغم مضى زمن طويل على هذه الحروب نجدها لاتزال تفعل فعلها المشئوم فى نفوس الكثير من الجهلاء .

ولكن هذا الأمر وحده ، ليس بكاف لتفسير ماحكم به على الإسلام فى أوربا من نفى وتحريم .

فعلينا إذن أن نبحث عن تعليل آخر . وسوف تتبين جلية الأمر إذا ماتأملنا المثل الذى تقدمه لنا ديانة أخرى تقابل حقًّا فى أوربا بمثل مايقابل به الإسلام ، من النفور والاضطهاد .

تلك هى ديانة فرقة (المورمون) وهى من الفرق البرتستانتية وقد أظهر أصحابها العجب العجاب من قوة العزيمة والذكاء والمثابرة ، فأحالت الصحراء ، ذات الأرض الملحة الكئيبة التى قطنت بها ، إلى بلد خصب زاهر ، وكان على أهل أوربا وأمريكا جميعاً أن يشيدوا بهذا العمل النافع لحضارة الإنسانية ومبدأ استحسانهم له . ولكن سائر شيع المسيحية ، على العكس من هذا ، تناست أحقادها وخلافاتها الخاصة لتتألب على المورمون ، يجمعها فى هذا شعور متماثل من الكره لهم .

فماذا كان الجرم الذى اقترفه هؤلاء المورمون ؟

لم يكن لهم من جرم إلا أنهم – كالمسلمين – يستحلون تعدد الزوجات . ومفتاح هذا السر إذن هو : تعدد الزوجات .

وإن فى ذلك لإنذاراً للأمم الإسلامية بأنها لن تحصل قط ، على حق الدخول فى زمرة الأمم المتحضرة ، ما لم تتنكر لمبدأ تعدد الزوجات !

تعدد الزوجات :

ولن نخاطر هنا محاولين الدفاع[1] عن عادة يحمل عليها الناس بمثل هذه الشدة ، لكننا نقتصر على عرض بعض الملاحظات .

---

(١) لقد دافع المؤلف دفاعاً مجيداً عن مبدأ تعدد الزوجات فى رسالته القيمة «اشعة خاصة بنور الإسلام» . . ونحن ننقل دفاعه الرائع فيما يلى :

مسايرة الطبيعة : =

= لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التى لا تغلب ، وإنما هو يساير قوانينها ، ويزامل أزماتها ، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شئون الحياة ، مثل ذلك الفرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون أعزاباً . .

وعلى أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة ، وأن يتمرد عليها ، وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً ، فى إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك «بالهدى» لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير . .

والأمثلة العديدة لا تعوزنا ، ولكننا للقصر نأخذ بأشهرها ، وهو الشاهل فى سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع ، والذى جلب للإسلام فى نظر الغرب مقالب جمة ومطاعن كثيرة .

ومما لاشك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل ، وهذا الأمر يعارض الطبيعة ، ويصادم الحقائق . . بل هو الحال الذى يستحيل تنفيذه . . لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع – وهو دين اليسر – إلا أنه يستبين أقرب أنواع العلاج ، فلا يحكم فيه حكماً قاطعاً ، ولا يأمر به أمراً باتًّا . .

والذى فعله الإسلام أول كل شىء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحاً دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد فى الزوجة فى قوله تعالى :

(فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) .

وأى رجل فى الوجودلايستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات . . ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعاً هو غاية فى الرقة والدقة واللطف مع الحكمة .

ثم انظر : هل حقيق أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها فى تطبيق ذلك ، قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ؟ . . وإلا فهؤلاء ملوك فرنسا . . دع عنك الأفراد – الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات ، وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام . .

إن تعدد الزوجات قانون طبيعى ، وسيبقى ما بقى العالم . ولذلك فإن ما فعلته المسيحية ، لم يأت بالغرض الذى أرادته فانعكست الآية معها ، وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها فى ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمارها فكان التحريم إغراء . . =

= على أن نظرية التوحيد فى الزوجة ، وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء . . تلك هى : « الدعارة ، والعوانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين » . .

وإن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية ، لم تكن تعرف فى البلاد التى طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق ، وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية . . ومن الأمثلة القائمة على ذلك ، ما كان من أمر وادى « ميزاب » حيث تسكن القبيلة التى بهذا الاسم فى بلاد الجزائر إذ لم تدخلها الدعارة إلا بعد ضمها إلى فرنسا عام ١٨٨٣ وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجموع كل سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الوبيل . .

ومما نرويه من هذا القبيل : ما جاء فى كتاب « الإسلام » تأليف « شتمزدومولان » أنه عندما غادر الدكتور « مأفروكورداتو » الآستانة ١٨٠٧ إلى برلين لدراسة الطب ، لم يكن فى العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة ، كما لم يعرف فيها داء الزهرى « وهو السفيلس المعروف فى الشرق بالمرض الأفرنكى » ، فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين أى سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال ، وفى ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا فى حسرة موجعة : إننا نرسل أبناءنا إلى أوربا ليتعلموا المدنية الأفرنكية ، فيعودون إلينا مرضى بالداء الأفرنكى » . .

على أنه من جهة أخرى نرى أن العلاقة قد تخفف بعض الشىء من أضرار هذا التعنت فى القصر على زوجة واحدة ، ولكن من جهة ثانية نرى أن العلاقة سيئة من السيئات . . إذن : ماذا ؟ . . إذن أى الأدوية قد خلا تماماً من بعض السيئات .

على أن الكنيسة قد أساءت – كذلك – فى مسألة العلاقة ، بمثل ما أساءت فى أمر التوحيد فى الزوجة ، وذلك بمخالفتها أيضاً لقوانين الطبيعة . .

انظر . . هل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لبعضهما صبراً ، وقد خاب ظنهما فى الزواج ولم يدركا السعادة التى طلباها من وراء ذلك ، هل أشد من الحكم عليهما بأن يخلدا بقضيان بقية أيامهما فى عذاب ونكد وشقاء » . . كذلك إذا كان أحدهما عاقراً ، أو كان غير كفء لزميله . هل يحرم الآخر من أن يبنى لنفسه بآخر ، وأن يقيم له عائلة من جديد . .

وإننا نحن فى صدد الطلاق لا تفوتنا حكمة التشريع الإسلامى ، وهو يرى السوء فى فوضى الطلاق ، فيسمع النبى الكريم يقول : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » .

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع فى سائر أرجاء العالم ، وسوف يظل موجوداً ماوجد العالم ، مهما تشددت القوانين فى تحريمه .

ولكن المسألة الوحيدة هى معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد ، أم أن يظل نوعًا من النفاق المستتر ، لاشيء يقف أمامه ويحد من جماحه . .

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين – ونخص منهم بالذكر « جيرار دى نير فال » و « الليدى مورجان » – أن تعدد الزوجات عند المسلمين ، وهم يعترفون بهذا المبدأ ، أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية : فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم فى هذا .

ولكن : هل تعدد الزوجات – حقيقة – أمر يصح أن نعلق عليه كبير اهتمام فى عصرنا هذا ؟ . . إن مقتضيات الحياة الحديثة – ولندع جانباً كل الظروف الأخرى – تجعل من العسير جدًّا وجود تعدد الزوجات فى المدن الكبيرة . . وسوف يزول هذا الأمر بين المسلمين الذين يأخذون بأسباب الحضارة الحديثة خلال فترة قصيرة ، وإذا كان مبدأ التعدد سوف يبقى ، فلن نجده مطلقاً إلا فى قلب البادية ، حيث تضطر الناس إليه ظروف الحياة التى لامفر منها .

ومع ذلك ! . . فإننا نتساءل : هل فى زوال تعدد الزوجات فائدة أخلاقية ؟ إن هذا أمر مشكوك فيه : فالدعارة التى تندر فى أكثر الأقطار الإسلامية ، سوف تتفشى فيها وتنشر آثارها المخربة ، وكذلك سوف يظهر فى بلاد الإسلام داء لم تعرفه من قبل ، ذلك هو عزوبة النساء التى تنتشر بآثارها

المفسدة فى البلاد المقصور فيها الزواج على واحدة ، وقد ظهرت فيها بنسبة مفزعة ، وخاصة عقب فترات الحروب . .

كتب شارل دوماس عن المسلمين ، فى إحدى دراساته حول مستقبل المستعمرات الفرنسية :

« إن جنساً لا يمكن أن يتحرر قط إذا قضى على نصفه – يعنى النساء – بالرق الأبدى » .

الحجاب :

فهل المسلمات حقيقة قد قدر لهن حال من الذلة يرثى لها إلى هذه الدرجة ؟ . .

لاشك أن الحجاب وشبه الحبس فى البيت المفروضين على المرأة المسلمة ، يبدو لعين المرأة الأوربية المغالية فى التحرر ، أنه من مظاهر الرق البالغ القسوة ، فتظهر عطفها على المسلمات وترثى لحالهن ، ولكنها لو علمت بما تسره هاتيك المسلمات من مشاعر وأفكار ، لعجبت أن رأت نفسها هى الأخرى محل عطف من جانبهن ورثاء – لاموضوع حسد كما كانت تظن .

ومن ناحية أخرى ، فإن التحجب ولزوم البيت . ليسا على أى حال من الفروض الدينية بالنسبة للمسلمات . . فنصوص القرآن (سورة الأحزاب : ٥٣ – ٥٥) التى تتخذ حجة فى ذلك تنطبق فقط على نساء النبى ولا تتعلق بسائر نساء المسلمين ، كما قد توحى بذلك ترجمة كازيميرسكى الخاطئة للآية ٥٥ من سورة الأحزاب .

لذلك فإن مثل هذه التقاليد التى دخلت على الإسلام بعد موت محمد بسنين عديدة ، كانت محل نقد شديد من جانب المدافعين عن حقوق المرأة .

ولنذكر من بين هؤلاء : قاسم بك أمين بكتابه « تحرير المرأة » والزهاوى شاعر بغداد برسالته المشهورة عن « الحجاب » التى يشيد فيها بفضل المرأة ويعتمد على الآية (. . ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف . .) فى مطالبته بالتحرير الكامل للنساء . .

وأخيراً السيدة ملك حفنى ناصف التى نشرت – بعد استئذان أبيها أحد علماء الأزهر القدماء – قصيدة تحتج فيها بأن رفع الحجاب إذا كانت المرأة فاضلة – ليس بشىء ذى ضرر ، أما إذا كانت نيتها سيئة فلن يجدى معها أى حجاب .

ومن المحتمل أن نشهد عاجلا أو آجلا زوال عادة التحجب فى الشرق فى الوقت نفسه الذى تحاول فيه بعض الأوربيات المتأنقات إدخال « مودة » النقاب التركى فى المجتمع الغربى . . وبهذا تخلع زهرة الجمال الإسلامى ذلك الثوب اللطيف الذى كان يحفظها من الأعين . ولكن ! ألن تأسف النساء الشرقيات على السحر الخفى الذى كان يسبغه عليهن النقاب ؟ . .

وهل يجدن فيما يجنينه من الازدهار تحت أضواء المدنية القاسية ما يعوضهن عن ذلك ؟ . . إننا نخشى أن تخرج الشرقية إلى الحياة العصرية ، وعيناها مبهورتان بأحلام الحريم ، فينتابها الرعب لما تشهده لدى أخواتها الغربيات اللائى يسعين للعيش ، وينافسن فى ذلك الرجل ، من أمثلة الشقاء والبؤس الكثيرة . .

ولكننا لانريد أن نصدر حكماً فى مثل هذه المسألة الشائكة[1] . . وعلى أى حال فإن أهمية مثل هذه الإصلاحات وإمكانها يختلفان اختلافاً كاملا ، حسب البلاد التى تهمنا . . ولذلك فإنه من المحال أن تؤدى بنا مناقشة المسألة إلى وضع قاعدة شاملة .

ولكننا مع ترددنا فى إصدار حكم فى الإصلاحات التى عرضناها ، نعترف صراحة ودون قيد ، بأن تعليم المرأة ضرورة بالغة الأهمية بالنسبة إلى مستقبل الإسلام . .

والتعليم ليس له علاقة بالتقاليد والعادات التى تعرضنا لها آنفاً ، وهو يساير كل المسايرة جميع تعاليم الدين ، وقد كان فى عصر ازدهار الإسلام يفاض فيضاً على المسلمات ، وكانت ثقافتهن حينذاك أرفع من ثقافة الأوربيات دون جدال .

والواقع أن التعليم فى الشرق لم يندثر كلية مثلما اندثر فى بعض أقطار المغرب . ومنذ بضع سنين ، والكثير من المسلمات يشغلن أوقات فراغهن فى خدورهن بالتعليم ، وقد بدأ مستواهن الثقافى يرتفع عامة .

وعلى التعليم وحده يجب أن يعتمد التطور الاجتماعى ، فى الميادين التى يكون فيها ضرورياً على أن يقدر ويوجه بحيث لاتكون له آثار غير محمودة فى نظام الأسرة[2] .

---

(١) لم يصدر المؤلف حقًا حكماً فى هذه المسألة وكل ما أراده إنما كان إظهار مرونة الإسلام ومسايرته لمختلف الأزمان ، ولقد قال مرة أحد كبار المؤلفين : إن معنى الحجاب فى الإسلام هو أن تحتجب المرأة عن مواطن الريب .

(٢) وكثيراً ما يخلط الكتاب بين الحديث عن تعليم المرأة والحديث عن مسألة الحجاب ، وقد بين المؤلف أنه لاصلة بين الحديث فى هذه وتلك .

الإسلام والعصر الحديث :

فإذا مافصل فى مسألتى تعدد الزوجات وتحرير المرأة (وهما المسألتان الوحيدتان اللتان نجد لنقد الناقدين فيهما ظاهراً من الحق) بدا الإسلام على حقيقته : ديناً يتمشى فى روحه تماماً مع أحدث الاحتياجات والأفكار العصرية حتى إن رجلا من الإنجليز هو «أوزوالد ويرث» كتب يقول : إننى تبينت أننى أدين بدين الإسلام دون شعور منى بذلك ، كما تبين المسيو «جوردان» أنه يتحدث «النثر» دون علم منه بذلك أما «جوت» فإنه بعد أن درس أصول الإسلام أعلن : إذا كان الإسلام هو هذا ، أفلا نكون جميعاً مسلمين» ؟ !

وبعد مدة يسيرة من الزمن سيكون من حق الإسلام المطالبة بحقه فى الحضارة الحديثة ، لأن الأساطير الصبيانية المفتراة عليه من عهد الحروب الصليبية إلى الآن لم يبق أحد يجرؤ على التسليم بها .

تطلع أوربا إلى الروحانية :

وكثير من ذوى العقول المستنيرة بعد أن أفاقوا من غفلتهم وبعد أن عرفوا إخفاق المذهب القائل بأن العقل يستقل بالمعرفة ، يسعى جاهداً لتعرف الهداية . وأن مذهب الحدس الذى يتهافتون عليه ، خلف حامل لوائه المسيو «برجسون» الشهير ، هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو بتعبير أدق : هو رد فعل لعجز مذهب استقلال العقل بالمعرفة .

وقد أوجد هذا الفكر ، فى قلوب الناس النهمين إلى الإيمان ، آمالا كان يبدو أنها انتهت إلى غير مارجعة ، فهويؤملهم فى خلود الروح . وبذلك تكون الحياة الدنيا ليست مشتبكاً عظيماً لقوى عمياء ، وأن العقل وسيلة فقط من وسائل المعرفة . ومع تأكيده بكل هذا لم يزد على أن بعث أفكاراً طال عليها العهد وأبرزها بطريقة يسهل فهمها ، واختار الوقت المناسب الذى يساعدها على أن تهيئ عناصر دين جديد ، يشعر كثير من الناس بشدة حاجتهم إليه (انظر كتاب حقائق الحياة لجوستاف لوبون) . إن حركة هذا الفيلسوف لاتقاوم ، وخصوصاً بعد دماء كثيرة سفكت بعد فتن عظيمة ، وسنشهد إذن مجهود الديانات القديمة والحديثة وهى تعمل جاهدة لاحتكار هذه الحركة لفائدتها ، ولكن المذهب القائل باستقلال العقل بالمعرفة ، حتى فى حال انهزامه ، لن تكون ثمرته أقل : وسوف يقيم عقبة كأداء بين العقل والعقائد التى تتصادم معه تصادماً عنيفاً .

ومن جهة أخرى ، ألا ينبغى لنا أن نحسب حساب النزعات الصوفية العاطفية الشاعرية ؟ أليست تلك النزعـات جوهرية فى وجود كل دين ؟ وإذا أردنا تلخيص الأمر فى جملة واحدة ، أفلا نستطيع أن نقول : إن ألزم لزوميات الدين العصرى هى تلك التى يتميز بها الإصلاح الدينى المتطرف من توحيد يكسوه ثوب رائع من الشاعرية ؟

وحينئذ يكون الإسلام قد توافر فيه شروط الدين الحنيف الذى يتوقون إليه إذا تجرد من الزبد الذى طغى عليه خلال جريانه . وقد نشأت جماعات صغيرة من الأوربيين الداخلين فى الإسلام فى إنجلترا وأمريكا ، إحداها وهى التى يديرها المستر «كويلم» ، تقيم فى ليفربول ، منذ عدة سنوات ، واشتهرت بأن معظم من

دخلوا الإسلام فيها من النساء . ولقد كان لإسلام عضو بارز فى إنجلترا هو اللورد هدلى الذى تبعه فى الإسلام بعض وجهاء لوندرة وأعيانها وقع فى النفوس ، وتنشر الجماعة الإسلامية مجلة شهرية تدعى « المجلة الإسلامية » التى أسسها هذا الرجل العالى القدر نقتبس منها ردها على السؤال الذى كثيراً مايرد وهو : لماذا أسلم بعض الإنكليز وغيرهم من الأوربيين ؟

« ذلك لأنهم كانوا يلتمسون عقيدة سهلة معقولة عملية فى جوهرها ، لأننا نتبجح معاشر الإنجليز ، بأننا أكثر أهل الأرض تشبثاً بالعمل – عقيدة تكون ملائمة لأحوال الشعوب جميعاً وأعمالهم وعاداتهم ، عقيدة دينية صحيحة يقف المخلوق بها أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط » (شلدريك) .

من مميزات الإسلام :

وهناك شىء مهم وهو انتفاء الواسطة بين العبد وربه ، وهذا هو الذى وجدته العقول العملية فى الإسلام ، لخلوه من الأسرار وعبادة القديسين ، ولا حاجة به إلى الهياكل والمعابد لأن الأرض كلها مسجد لله ، وفوق ذلك قد يجد بعض أهل مذهب الاعتقاد بالله دون غيره من العصريين المتحيرين فى التعبير عما يخالج نفوسهم من التطلع قد يجدون فى الإسلام المذهب النقى للاعتقاد بالله فيجدون فيه أبدع وأسمى أعمال العبادة وما يمكن أن يتخيله من معنى ألفاظ الدعاء . ثم نزيدك شاهداً آخر وهو قول شرفيس : « الإسلام يحقق أبلغ معنى لفضيلة الإيثار على النفس بأقل بحث فيها من الوجهة النظرية » .

وقد حصل فى فرنسا وفى بلاد أخرى من أوربا وأفريقيا وآسيا دخول

أشخاص فى الإسلام فرادى .

ومن مميزات الإسلام الأصيلة ملاءمته لجميع الأجناس البشرية فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الإسلام ، بل كان من ضمنهم من هو من فارس كسلمان الفارسى وبعضهم من النصارى كورقة[1] ، وبعضهم من اليهود كمخيريق وعبد الله بن سلام ، وبعضهم من الأحباش كبلال وغيرهم ، وجاء فى القرآن الكريم : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) فدين الرسول محمد عليه السلام ، قد أكد من الساعة الأولى لظهوره ، وفى حياة النبى ﷺ ، أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل ، إذ هو دين الفطرة والفطرة لا تختلف فى إنسان عن آخر. وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة ، وهو على ما فيه من تسامح وبساطة ، سواء بالنظر لمذهب المعتزلة ، أو بالنظر لمذهب الصوفية ، يؤدى للعالم هداية وتوفيقاً سواء فى ذلك الأوربى المتحضر والزنجى الأسود ، من غير أن يعوق حرية الفكر عن أحدهما ثم يزيد على ذلك بالنسبة للزنجى انتشاله من عبادة الأوثان .

ثم هو لايعوق الرجل العلمى الذى يرى حياته فى العمل ويعتبر الوقت من ذهب كالرجل الإنجليزى ، وكذلك لايعوق الرجل الصوفى والشرقى المتأمل فى بدائع الصنع ، ويأخذ بيد الغربى المأخوذ بسحر الفن والخيال . وليس هذا فحسب بل هو يستولى على لب الطبيب العصرى أيضاً ، بما فيه من الطهارة المتكررة فى اليوم والليلة ، وتناسق حركات المصلى فى الركوع والسجود ، وما فيها

(١) ورقة كان على أتم استعداد للإسلام لو أمر الرسول بالدعوة حال وجوده .

من نماء للجسم وإفادة للصحة الجسمية والنفسية .

وعلى هذا فليس من الجرأة إذن ، أن نظن أنه إذا هدأت الزوبعة المروعة القائمة ضد الإسلام ، وضمن هو الاحترام لكل الشعوب والديانات أنه سيرى مستقبلا حافلا بأعظم الآمال وأعلاها شأناً .

فإذا مادخل فى الحضارة الأوربية بفضل اشتراكه العظيم فى الحوادث فسيتضح سناه الحقيق ، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التى حجبت عنهم وسيمد الكل يده لمحالفته ، متنافسين فى ذلك ، لأن قيمته قد خبروها وعرفوا مايستكن فيه من وسائل القوة التى لاحد لها ولا نفاذ . . ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد وصاروا أمة لاتعرف الجور فى معاملتها لكل رعاياها ، لافرق بين مسلم ومسيحى ويهودى ، وتبوءوا مكانهم الذى يليق بمجدهم إن شاء الله .